القاهرة ١٩٩٢

تائهة بلا جلّابية

■ بعد دمشق وبيروت، تتابع «الناقد» رحلتها مع سلسلة «عواصم ثقافية». فتحط رحالها هذه المرة، في القاهرة. والقاهرة عاصمة غنية عن التعريف في الثقافة والسياسة والفن والأدب. من هنا، لن نضيف لقباً آخر الى ألقابها حتى لا نقع في الانشاء العاطفي. ذلك اننا نكنّ لمصر حباً مستعاداً، منها إليها.

يصعب علينا حصر الثقافة المصرية الراهنة، من حياة فكرية وثقافية وفنية وأدبية، في زيارة واحدة. فالقاهرة أوسع من ملف وأكبر من عدد.

أعد هذا الملف:
يحيى جابر

ويأتي اختيارنا للقاهرة ١٩٩٢، عاصمة ثقافية، في ظروف غامضة تحيط بالعالم العربي، حيث الضباب يغطي جميع العواصم العربية. ويسيطر على الأجواء مناخ تقسيمات وتصغيرات وتفريخ دويلات، تنبعث منه رائحة بارود على إيقاع طبول حرب أهلية. وبهدف أن تتوضح الصورة أكثر، قمنا بزيارة استطلاع واستكشاف لقلب العالم العربي - القاهرة. فجسينا النبض وأصغينا لدقات القلب التي يترجع صداها من المحيط الى الخليج. وعدنا أكثر خوفاً.

مشردة بلا طرحة

هذا العدد الخاص، هو ثمرة انطباعات خاصة، ومحاولة بحث عن إشارات ثقافية مصرية تتشابه مع الاشارات الصادرة عن العواصم العربية الأخرى. ولم نستطع سواء في انطباعاتنا أو بحثنا إلا أن نتعامل مع القاهرة بمزيج من الحب والعتب.

ولأن لكل عاصمة لوناً ونكهة وأسلوب حياة، يجيء هذا العدد الخاص من «عواصم ثقافية» مختلفاً عن غيره، حيث ينقسم الى قسمين: الأول كناية عن مشاهدات للحياة الثقافية المصرية تتوزع بين ناس الثقافة وثقافة الناس. والثاني يحتوي على نصوص ابداعية شابة، حاولنا من خلالها أن نؤشر على مستقبل الابداع في مصر، مقدمين نماذج جديدة من الشعر والقصة. حيث أردنا لمصر أن تتعرف على نفسها ونتعرف عليها عبر نصوص شابة، مع كامل احترامنا وتقديرنا للأسماء الأخرى المعروفة.

وتتوجه «الناقد»، بالشكر، لكل من ساهم وشارك في النصوص والرسوم. في الحوارات والنقاشات والمصافحات العابرة. كذلك في السهرات الخاصة والجلسات الحميمة السريعة. □

«الناقد»





بين أحفاد الملوك وأولاد الثورات

■ من أي سور تدخل الى القاهرة؟ كيف تقرأ هذه السلالات الحجرية المتوارثة، من أية بوابة ينفتح المشهد على قاهرة المعز؟

«ادخلوها آمنين» فدخلت وتهت وفي يدي عشرات المفاتيح لآلاف الأبواب.

لا خطوة أولى. . . لكن كيف تخرج سالماً غانماً؟

وتحار. . .

بين أن تلاحق أنفاس أخناتون، موحد آلهة الفراعنة، أو تلتقط صوت عبدالناصر موحد الأمة العربية ذات ليلة، ذات خرافة.

أن تحصي تماثيل رمسيس أو مآذن القاهرة الألف.

أن تضيع من اللهفة في مقام الحسين. أو من فرقعة الضحك في شارع محمد علي.

أن تستعرض ثياباً تليق بجسد هذه البلاد، التائهة بين نقاب المحجبات وبدلات الرقص، بين الجلابيات الشعبية وشورتات السائحات.

أن تصغي لطرفة أو شتيمة في مقهى، أو تسمع طلقات الاغتيال المتلاحقة في الحارات والقرى.

ويضيع صوتك بين رنين الخلاخيل والأساور وبين خشخشة الجنازير وصليل خناجر أصحاب اللحى والذقون.

من أين أدخل الى ثقافة القاهرة؛ هل أتسلق قلعة صلاح الدين، أو أتأمل من شرفات الشيراتون والهيلتون:

موزعاً. . .

بين المساجد المتناسلة من بعضها، أو الكنائس المخيّطة والمجموعة على حذر.

بين الشيخ الشعراوي الذي يبيع مليون نسخة من كتابه أو الكاسيت المليون لأحمد عدوية.

في متحف القاهرة ثمة مومياءات محنطة منذ آلاف السنين، في الخارج ثمة أفكار محنطة أيضاً تدعوك الى عيش سابق يمتدُّ الى آلاف السنين. كأن القاهرة متحف الكرة الأرضية من حجر وبشر، من آثار



ضائعة، وأفكار مشتتة، وبحث دائم عن هوية.

هل هم فراعنة أم عرب؟

مصريون أم مسلمون؟

أفارقة أم متوسطيون؟

ويكر خيط الاختلاف بين الصعايدة وأهل القاهرة، بين الهلال والصليب، بين الباشا والخواجة، بين أحفاد الملك وأولاد الثورة.

لا يختلف المشهد الثقافي المصري عن سيناريو الثقافة العربية، مشرقاً أو مغرباً، محيطاً أو خليجاً. انها التحولات والانهيارات نفسها، فكما بيروت ودمشق وغيرهما من العواصم تبدو القاهرة ١٩٩٢ عاصمة ثقافية تائهة بلا جلابية ومشردة بلا طرحة.

لا يمكنك في عشرة أيام أن تلقي القبض على روح الثقافة المصرية، ولكنك تلتقط مجموعة من الصورة التذكارية كأي سائح ثقافي، باحثاً عن إشارات وآثار، مثل نظرة خاطفة من الطائرة وعلى ارتفاع عشرة آلاف قدم، حيث مصر وتحولاتها من الأزرق المتوسطي الى تدرجات الأخضر حول النيل، لينقلب المشهد نحو الأصفر الصحراوي فترى مرة أخرى، كتلة من ألوان ترابية قاتمة، انها القاهرة؟

تبدو القاهرة كمجلد ضخم من الاسمنت، مجلد مفتوح على الحكايات والجيوش والخرافات. ويلفتك توقها الى الأعلى، من الأهرامات المشدودة بحجارتها، والمآذن المنتصبة نحو غيم قليل، والفنادق الشاهقة. حتى ان عبدالناصر شيّد بأموال المخابرات الأميركية التي حاولت رشوته «برج القاهرة».

هذه النظرة المتوثبة نحو السماء لا تفارق الاحساس المصري المؤمن بقوة بالقضاء والقدر والاتكال على الله، ففي أي حوار عادي يدخل اسم الله بين عبارة وأخرى: «انشاالله، الحمد لله، ربنا يسّر. وحياة ربنا»، وغير ذلك من مفردات قاموس الايمان والتسليم.

السماء تخرج طوارىء من لظى الصحراء وحرارة الأسعار. فسائق التاكسي الذي أقلني من المطار الى الفندق لم يكف عن التذمر من غلاء المحروقات، لكنه حمد الله على نعمه، ثم تعوّذ من الشيطان، وسخر من الحكومة دون أن يشتمها «مالنا ومال الدولة.. كل واحد مسؤول عن عمله أمام ربنا» ثم لعن الأولاد والزواج والحياة والوالدة والأخوة، حيث يسكنون جميعاً في شقة من غرفتين، لكنه انعطف فجأة، متمتماً بعض الآيات القرآنية مترحماً على الذين ماتوا صباحاً في الحي، أثر انهيار المبنى القديم، أثناء نومهم، فشاركته الاسترحام، لكني انتقلت بسرعة في تداعياتي الى الأبنية الأخرى التي تتهدم من تلقاء نفسها، كالبناء الشعري، حيث تنجح قصيدة النثر أن تحقق لنفسها توازناً على أنقاض شعر الستينات والسبعينات. وبالنسبة الى بناء الرواية والقصة، الأعمال جارية في دك عمارات محفوظ وادريس: من الشتم الى الانشقاق... ولكن السائق أيقظني في نهاية المطاف، ليخبرني أن مصر وردت في القرآن سبع مرات وهي أرض مقدسة. ثم أردف وهو يشير الى تماثيل رمسيس المتعددة: «هؤلاء أيضاً أجدادنا وإن كانوا كفاراً... وربنا يوفقك».

ثمة ثقافة شعبية تتواصل بين المحرّم والمقدس، ثقافة الممنوع المرغوب، من ثقافة قرآنية متأصلة، الى ثقافة انفعالية مع الغرب من أيام نابليون والانكليز. ثقافة ترغيب وترهيب، وانكفاء الى أحاديث نبوية تسيّر حركة الناس إضافة الى ديون باهظة تعطل حركة نهارهم.

ثمة ألغام قد تنفجر في وجهك، فالحوار الثقافي ليس آمناً، وهناك مواقف مستترة وآراء مطمورة، فلربما يكفرونك ويرجمونك بصفات ونعوت، أقلها الإساءة الى سمعة مصر ثقافياً.

مجلّد مفتوح على الحكايات والجيوش والخرافات

كنت حذراً في البحث عن المكبوت الثقافي المصري. فالثقافة المصرية لها جذور أساسية في الثقافة العربية، وكانت الأولى في ماراثون البحث عن أصالة العروبة وهاجس العالمية.

ومن القاهرة ١٩٩٢ ينطلق السؤال: هل ما زالت مصر «أم الدنيا» واهبة الحياة أم أنها أصبحت ثكلى العواصم التي فقدت أبناءها. وهي تنزوي في مكان ما، متكومة، تندب فجيعتها، مستعيدة أرواح أبطالها في الفكر والفلسفة والفن والأدب والموسيقى والسينما؟ □



كوابيس وهلوسات.. والقاهرة لا تنام

■ كان العرق يتصبب من أطرافي كافة، حين تذمرت: «ما هذا الحر، أين الهواء». فأجابني ابراهيم عبدالمجيد بثقة تامة: «لقد تغير الطقس في مصر، ليس بسبب الأوزون، وإنما بسبب حرب الخليج... لقد غيّروا فينا كل شيء. حتى مناخنا أصبح أكثر صحراوية». فضحك محمد عفيفي مطر وقال: «متى ينضب هذا النفط لنحيا بكرامتنا! هذا النفط الرجعي الخليجي سبب كل مصائبنا». فسألته بدوري عن مصائب النفط التقدمي والطليعي! ... تابع محمد عفيفي مطر: «اعتقلت بسبب موقفي المعارض لحرب الخليج، وفي المعتقل كسروا أنفي، وأجبروني على ابتلاع حبوب الهلوسة، وهذه الحبوب أصابتني بالجنون، حيث انك مثلاً ترى أمك عارية، وزوجتك تخونك، وشقيقاتك يغتصبن، هلوسات وكوابيس لا تحصى، حتى الذين معك في الزنزانة تحس انهم يجردونك من ثيابك، كنت أقفز في السجن كالسعدان من شدة التعذيب النفسي، انهم يريدون تحويلنا الى قرود؟».

كان محمد عفيفي مطر يفرم الخيار، ويحزّ قطع الثلج في المطبخ، راوياً ذكريات اعتقاله، حدثنا عن شعراء قابلهم في هولندا منذ فترة أثناء مهرجان الشعر العالمي الذي أقيم في العاصمة الهولندية. وقال وهو يحضّر حقيبته استعداداً للمغادرة الى مهرجان جرش: «علاقاتي مع الخارج لا تتعدى القاء قصيدة أو ندوة عن الشعر، أما في بلدي فأنا أعيش من قطعة أرض أحرثها وأزرعها، مقيماً مع زوجتي وأولادي، فأنا فلاح ابن فلاح، والعالم الجديد كارثة، وقد وضعوا جرثومة في القطن. فبعد أن كان القطن المصري من أفضل الأنواع، أصبح يحتل المرتبة الدنيا... حتى حبة القمح تسوّست وذلك بفضل التعاون مع الخبراء الزراعيين الاسرائيليين. الفلاحون الآن يستوردون الجبن واللبن بعد أن كنا في حالة اكتفاء ذاتي».

تشترك مصر، مثل باقي دول العالم الثالث، في ظاهرة الهجرات الجماعية: فلاحون يهجرون الأرض نحو المدن الكبيرة، وعمال يهرعون الى الخارج بحثاً عن فرصة عمل. والمثقفون يهجرون الناس نحو الترجمات، والسياسي يهاجر صوب المصارف العالمية بحثاً عن قرض ما، والمصرفي يهجر بأمواله الى الخارج، ورجل الدين يقود الناس في هجرة جماعية الى الوراء، إلى قدر أعمى.

الكل يبحث عن بطاقة سفر وتأشيرة. لم تعد الأماكن مطمئنة «حتى انهم يحاربوننا الآن، بتسطيلنا، وتدويخنا عبر سلاح المخدرات» كما أخبرني غالي شكري في احدى السهرات.

محمد بدوي في السهرة التي جمعتنا في منزل الشاعر مطر كان لا يكف عن الخروج الى الشرفة ليعب هواء ما، أو وهم نسمة ثم يقول: «بعد يومين سأغادر الى احدى الجامعات السودانية لأصحح العلامات، وكنت سابقاً مدرساً في جامعة صنعاء، وأحلم بالسفر الى جامعة بيروت العربية. الهجرة هي حبل نجاتنا، كأن القاهرة لم تعد لنا»، وبعد أن نظف نظارته من الغبار تابع: «ظللت أكتب في النقد الأدبي، حتى نسيت القصيدة. وبسبب لقمة العيش هاجرت لأصبح موظفاً نسي مهنة النقد الأدبي، ... انه الاقتلاع المعنوي، من الجذور الجماعية والفردية».

القاهرة لا تنام.

لا ينقطع سيل المارة والسيارات، والساهرون المتفرقون على عشب قليل في الميادين، يبحثون عن نسمة هواء مفترشين مساحات خضراء تنقرض يوماً بعد يوم، ويتفرقون على الكباري، يتأملون النيل الراكد، وخلفهم أنوار نيون تضيء وجوههم المغبرة، حتى أن المنتظرين على النواصي يتغالبون مع النعاس، ويدخلون في النهاية بما يشبه أحلام اليقظة. تحسُّ انهم لا يعرفون طعم النوم وانهم في منتصف الأشياء، فيختلط الليل بالنهار، الهمبرغر بالطعمية، والفول بالبيتزا، في انفتاح فاضح على الخارج، وانسحاب عشوائي الى الداخل.

ثمة أسئلة بديهية يعاد طرحها في ثقافة القاهرة، من التشريق والتغريب، الأصالة والحداثة، الاشتراكية المقفلة، والديموقراطية الهشة، الى الأسلمة والعلمنة. انهم ينفضون الغبار عن شعارات كانت مطمورة في رمل الذاكرة. من الفرعنة «والتمصير» ومن ثورة سعد الى ثورة يوليو. وثمة فوضى في زي الأحزاب، واجترار أفكار، وأصوليات اسلامية أو قبطية بالاضافة الى أصوليات ماركسية وغيرها من أخوات الأيديولوجيا.

انهم يعيدون خلط الأوراق في الفكر والثقافة والأيديولوجيا، في عملية طرح أسئلة صوب أجوبة مبهمات.

في كل فنادق الشرق ثمة نافورة في قاعة الاستقبال، نافورة ماء يتكرر من بعضه البعض، يشبه الكلام العربي الذي يتغذّى من نفسه مجترّاً قاموس مفرداته، وحدهم السياح يتفرقون باطمئنان على المقاعد الجلدية، فتشاهد يابانياً يلتقط صورة تذكارية أمام النافورة، في محاولة لالتقاط ذبذبات عقلنا، ومصادر ثقافتنا!

إلى أي عصر تدخل؛ وأنت محاصر بين الشورت الأميركي والدشداشة الخليجية، وتحت نافورة الكلام. كان النيل هادئاً بعد منتصف الليل، وأنا أتأمله من الطبقة العشرين من الفندق، ولم يوقظني من غيبوبة الأسئلة، سوى تلك الدفوف والمزاهر وضجة السهارى في ملهى الفندق:

«ايه العظمة دي كلها. آه يا جميل يا أبهة». □

معـــارك في الأدب و«قلة الأدب»!

■ ثمة هامش ديموقراطي في الحياة الثقافية المصرية الراهنة، وحرية تعبير وتعددية في الرأي، وتنوع في المنابر، وهذا الحيز من الحرية، يعتبر واحداً من خصائص وتقاليد الثقافة المصرية منذ عصر النهضة. وإن مرت تلك التقاليد بحالات من القمع والنبذ في عهود الثورة الناصرية أوفي مرحلة الانفتاح الساداتي! لكن هذه المساحة المفتوحة للمثقفين تبـدو منشغلة بشكل دائم بالمعارك الأدبية: حروب يقودها المثقفون ضد بعضهم البعض بعنـاوين فضائحية، اعتقالات آراء بالجملة، ناهيك عن حلقات التعذيب اليومية على صفحات المجلات والجرائد والمنابر والمقاهي. انها معارك لا تشبه معارك طه حسين مع العقاد، أو غيرهـا مما يستنـد اليه بعض المثقفـين لتـبرير ثقافة الفضيحة وهتك الأعراض وكذا من الشتائم والاتهامات.

من مقهى زهرة البستان الى مقهى الحميدية، أو صالة الأتيليه، إلى المكاتب الصحافية أو السهرات في «الأوديون» أو «ستيلا»... تبدو النقـاشات الثقافية أشبه بحلقات جلد متفرقة، وسلخ للأسماء من نصهـا ولحمهـا وأخـلاقهـا، ليتحول الحديث الى جثث هامدة على مشرحة الألسن، كأن ورثة المعتقلات يتحولون الى جلادين بالجملة، في احتفال سادي جماعي.

المعـارك مفتـوحة بين الجميع. بين كل التيارات والأجيال، بين النقـاد والـروائيين، بين شعـراء التسعينـات والستينات، بين النقاد أنفسهم، بين محرري الصفحـات الثقـافية، وتتجاوز هذه الحروب حدود النص الى الأرشيف الشخصي وسلالة العائلة أو الانتماء الديني.

معـركـة بين الناقد فاروق عبدالقادر وجمال الغيطاني، بين رجاء النقـاش وعبدالقادر، بين أحمد عبدالمعطي حجازي، حول مفاهيم الصفوة والحرافيش. بين مصطفى هدارة والمثقفين، بين إبراهيم فتحي وإدوارد الخراط، بين الخراط والغيطاني ومحفوظ.

وتكر قائمة الاتهامات على صفحات الجرائد من اتهامات متبادلة، فلان عميل للعــراق، لنــظام صدام حســين، وأعـــالـه تترجمهـا المخابرات. آخر يتربح من سيطرته على صفحته الثقافية، ويعتاش من جهة خليجية. وان نجيب محفوظ لولا اسرائيل لما نال جائزة نوبل. وفلان كان مخبراً ثقافياً عند جهاز المخابرات. وذاك الناقد شاذ جنسياً، وآخـر سرق أعماله من المؤرخين، وآخر يذهب الى اسرائيل، أو انه عميل للمخابرات الأميركية.

[عراقي - خليجي - ليبي] [كاتب تقارير - عميل للسلطة].

تقوم معظم المعارك على أساس العمالة للخارج والتخوين في الوطنية ثم الرشوة والاستغلال لصغار الصحافيين والكتبة، بالاضافة الى هتك الأعراض، والمحرّمات الأخلاقية.

[من القاموس: شاذ، سكّير، حشّاش].

من المعـارك التي تلفت الانتبـاه، ما حصل بين مصطفى هدارة وجماعة من المثقفين، ومصطفى هدارة هو استاذ في الأدب في جامعة الاسكندرية، حائز على جائزة صدام حسين قبل حرب الخليج وحائز



على جائزة الملك فيصل بعد الحرب. بدأت القصة حين أرسل هدارة خطاباً مطولاً الى مكتب رئاسة الجمهورية يتهم فيه وزير الثقافة فاروق حسني وكل من سمير سرحان وأحمد حجازي وجابر عصفور وغالي شكري انهم شيوعيون، ويحاولون السيطرة على الثقافة المصرية من منابر وأدوات، ويدعو رئيس الجمهورية الى عزلهم ويحذره منهم ومن ألاعيبهم. ولكن من سوء حظ هدارة أن رئيس الجمهورية أرسل الخطاب الى المعنيين بالاتهام، وهو تقليد جديد في الدولة لم يكن يحدث في الجمهوريات السابقة، حيث كانت ترد الشكاوي الى المعنيين بالأمر. وحين وصل الخطاب الى حجازي نشره حرفياً في مجلة «ابداع» ناشراً رده عليه في العدد نفسه. كاتباً أنه: «يمارس الوشاية ويقود الحياة الثقافية المصرية لعصر محاكم التفتيش»، مدافعاً بشدة عن زملائه المثقفين موضع الاتهام، وبدأت رسائل التعاطف ترد الى حجازي من جماعات الأدباء في الأقاليم. فرد هدارة بتوقيعات أخرى، لكن معظم الذين وقعوا مع مصطفى هدارة أعلنوا في بيان انهم لم يوقعوا شيئاً، وانهم متعاطفون مع حجازي، عندها انسحب هدارة من المعركة قائلاً انه لم يكتب الى رئيس الجمهورية وشاية وإنما «شكاية».

يبدو إدوار الخراط للوهلة الأولى أشبه بشخصية التحري في الرواية البوليسية، رجل هادىء يصغي اليك، يبتسم بحذر. يهز رأسه بخجل. وتبدو غرفته أشبه بصومعة باحث في التاريخ أو عالم في الآثار. مجلدات ضخمة على الرفوف، كتب في الصناديق الكرتونية، ومتفرقات من اللوحات والأيقونات، وتماثيل صغيرة للفراعنة... ويتفرق كلامه بين وصلات من صمت متقطع:

«أنا محبط مما يجري. لقد قلت رأياً عابراً عن محفوظ وادريس، انهما متوسطا القيمة. وطلبت من الصحافي عدم نشر ذلك، ولم يكن قولي عن الغيطاني انه رجل مخابرات، من باب التشهير، لكن المحرر الصحافي كان يبحث عن الاثارة والفضائحية. ولم يحترم الأمانة الصحافية... لقد كنت أول من كتب دراسات عميقة عن أدب محفوظ... وسأعيد نشرها رداً على هذه الفضائحية في حياتنا الثقافية، وكم أتمنى أن تعود الى تقاليد الحياة الأدبية الرائعة كما كانت في الأربعينات والخمسينات».

يحتفظ الخراط بأرشيف ضخم لأكثر الشعراء والقصاصين الذين قدمهم في السبعينات والثمانينات، حيث لكل شاعر أو قاص، ملف خاص به، فهو متابع بعمق لكل حركة شعرية أو قصصية، ومحرّك ثقافي لندوات أو مجلات أو جماعات أدبية، حريصاً على تقديمها خارج مصر بعناية. وربما جعلت منه هذه الحيوية موضع أسئلة وشك بكونه راعي جماعات، وصاحب طريقة في الأدب. ويتميز الخراط بأنه يبحث عن لغة خاصة لروايته وشخوصه، ويهجس بالرواية - القصيدة - مع قاموس ضخم من الشعر، مستلهماً المصادر القبطية والمسيحية في أعماله، وهو يشبه جمال الغيطاني في غرفه من الارث الاسلامي الشعبي.

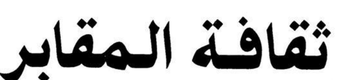
روائي تترجم أعماله المخابرات وناقد شاذ جنسياً!

والغيطاني والخراط هما الروائيان الأكثر حضوراً في المشرق والمغرب بتجربتيهما بعد محفوظ وادريس، ونتساءل هل ان المعارك بينهما هي خلاف على الارث والامارة؟! انطلاقاً مما كتبه عبدالفتاح رزق في روز اليوسف «انه بعد رحيل يوسف ادريس وبعد أن قلّ انتاج نجيب محفوظ أصبح المكان شاغراً لمن يتولى امارة القصة والرواية».

التقيت بجمال الغيطاني في مكتبه بجريدة «الأخبار»، وكان يبدو عليه ملامح «ابن الحتة» سمات وثقافة وسلوكاً. فالرسوم الدينية وحواري صلاح عناني. والخرز الأزرق المعلق على الجدران. كانت توحي اننا في غرفة شعبية حتى أن المشهد من النافذة كان يطل على مواقف للباصات، وأسطح البيوت التي تعج بالفوضى. والزحام. لكن الغيطاني يقلب المشهد الى التراث، والمشاغل الصوفية، لذلك كان حديثنا في البداية عن مقام الحسين، وسيرته، وكربلائيته، وكان الحديث يتقطع بين العامية والانكليزية بسبب وجود المستشرقة الايطالية «باربرا بيتي» التي تعد دراسة عن أعمال الغيطاني، ولكن الحوار سرعان ما استقام بالعامية حين سألته عما يجري في الحياة الثقافية الراهنة، وخفايا المعارك بينه وبين الآخرين... فاسترسل يقول:

«قل لي عن ماذا أدافع... يطالبني أحدهم أن أترك صفحة الأخبار وأن لا أعمل مستشاراً في دار نشر، بمعنى أن لا أعيش من مهنتي كصحافي، واتهامي كعميل للمخابرات، هو أمر ملتبس، فلقد كنت مراسلاً حربياً على الجبهة، مثل أي صحافي، وكتبت عن الجندي المصري على الجبهة... أليس الجنود من الشعب؛ لقد عرفت المعتقلات وذقتها، وفي أيام السادات انزويت سبع سنوات ووصلت الى درجة الاكتئاب النفسي، وحين استلمت صفحة الأخبار كانت هناك قائمة من الأسماء الممنوعة ومنهم الذين يشتمونني الآن واستطعت أن ألغي تلك القائمة وكلفني ذلك معركة مع إدارة التحرير. صفحتي مفتوحة للجميع مع أن الصفحة هي أسبوعية، ولا تتسع لآلاف الأخبار. وعملي كمستشار لدار نشر يساهم بشكل أو بآخر بطبع المؤلفات والابداعات المصرية التي لا يجد أصحابها من ينشر نتاجهم، أما بالنسبة للسرقة من التراث، فهذا لا يتعدى الاستلهام، كما يفعل معظم أدباء العالم. أثناء بحثهم عن الأصول. وإذا تُرجمت بعض أعمالي قالوا انني أدفع للمستشرقين، لكن ماذا تقول عن دار بنغوين الانكليزية التي بادرت الى ترجمة أعمالي؟ وإذا دافع أحد الأصدقاء عني، قالوا انني دفعت له... ليكتبوا انني أديب سيء وأن نصوصي لا تعجبهم، وهذا من حقهم. أما أن أتحول الى رجل بلا أخلاق... فهذا لا يمكن أن أسمح به، وهذا حق لي».

قال لي أحدهم: «ان هذه المعارك قد حادت عن جادة الصواب، ويمكن أن تشم منها رائحة مؤامرة على المثقفين المصريين من قبل النظام»، أما منى أنيس (محررة رئيسية في الأهرام ويكلي) فقالت: «يجب أن تخرج هذه النميمة من المقهى الى صفحات الجرائد، لماذا نخشى الفضيحة، ما دمنا كلنا في هذه المذبحة؟». أما غالي شكري فلقد أصابته هذه المشادات بالاكتئاب، مما جعله يقول: «ان ما يجري ليس معارك أدبية وانما دخلنا في حالة «السلطنة» هذه الشتائم المتبادلة جاءت لتدخلنا في حالة تشتت وضياع... قد لا يوجد الآن مثقف معتقل، أو في السجن بسبب عمل إبداعي، فوزارة الثقافة الآن ناشطة، من المهرجانات والندوات وبناء قصر الأوبرا كتحفة فنية الى اعادة فتح المتحف المصري بعد إغلاقه لعشر سنوات خلت. والآن نحن في مناخ ديموقراطي نتبادل السباب... هل يجوز أن تصبح العلمانية كفراً، وأن تكون عروبياً فتُرجَم؟ أنا من المؤمنين بالانفتاح على الثقافة العربية ولقد مارست هذا في كتاباتي النقدية». □



ثقافة المقابر

من الأهرامات حتى مقام الحسين

■ لكثرة ما رأيت الاهرامات في البطاقات التذكارية والأفلام وغيرها من الملصقات، خفت حماستي لرؤية هذا الأثر، لكن حب الاستطلاع دفعني لجولة حول خوفو وخفرع ومنقرع، وحين توقفت أمام قاطع التذاكر قال لي:

- أنت أجنبي؟
- لا . . . أنا عربي.
- يعني أجنبي.
- كما تريد.
- إذاً . . . عشرة جنيهات.

حاول سعد ومحمد، مرافقاي في الرحلة أن يصححا هذا الخطأ العروبي مع قاطع التذاكر الذي لم يهتم للأمر وحين وصلنا الى الحارس على مدخل الاهرامات، أخذ البطاقات قائلاً لي:

- الأخ . . . عربي؟
- لا . . . أنا لبناني.

ما أفرحني، هو مشهد عاشقين يتفيآن أحد حجارة الهرم العملاقة، خطيبان مع ترمس قهوة وسندويشات، يحلمان، ويتشاجران، ويتلامسان بخفة. «هذه المقابر تدر علينا عملة صعبة» يقول سعد (صحافي في جريدة الأهرام). أما محمود فقال «نحن الصعايدة الذين بنينا الأهرامات، وعظامنا تحت هذا الرمل مطمورة منذ آلاف السنين، ومع ذلك ينظر الينا أهل القاهرة على أننا سذج ومتخلفون» ثم يقف سعد مشيراً الى أحد الأحجار: «وزن الحجر خمسة أطنان أو أكثر. . ايه التعب ده. . . انها حضارة قبور». فأقول: «لكنها واحدة من عجائب الدنيا السبع» فيجيبني محمود بسرعة: «ونحن أيضاً شعب عجائب».

تحت هذه الأطنان الضخمة من الحجر، ثمة أرواح هائمة في الصحراء، أرواح من عاشوا ليعمروا قبراً لملك. أجيال تلو أجيال انقصفت لبناء هذا الصرح، هل الحضارة قبر؟ لكن ما تركه الفراعنة يتجاوز ذلك نحو الآداب والفنون والهندسة، مع ذلك فهي تميل الى فكرة الخلود، وثقافة ما بعد الموت.

مرّ أمامي الدليل العجوز يتوكأ على عصاه، يقود قافلة من الانكليز والسياح العجائز. لكن مرة أخرى، لفت انتباهي منظر العاشقين الصغيرين اللذين استكانا، بعد شجار، متوحدين.

لم تكن الشمس من فوقنا ذهباً، وإنما ناراً ملتهبة. والرمل الذي نمشي عليه لم يكن ناعماً أو حنوناً بل جمراً يتقد. . . كيف كان الطقس إذاً منذ آلاف السنين؟

«لو أهدر الناس وقتهم في حفر قنوات للنيل في الصحراء ألم يكن ذلك أجدى نفعاً وأكثر حضارة؟» هكذا لم يكف سعد عن التساؤل، فيما أنا أتأمل كتف أبو الهول المخلوعة التي يحاولون ترميمها، والسياح يتصايحون أثناء التقاط الصور، كالسعادين. ثم أردف سعد: «ها نحن نبيع موتانا ملوكاً وشعوباً. . . هؤلاء الذين يسرقون مليارات الدولارات من ثرواتنا، تحت حجة الديون الخارجية. ونحن نختطف منهم حفنة قليلة من الدولارات، لقاء استئجار حمار أو حصان، وأهل نزلة السمّان المجاورين للهرم، يسرقون الفخار والتماثيل، ويبيعونه للأجانب انهم يشترون قبورنا بأبخس الأسعار».

غادرنا الأهرامات في أسرع رحلة سياحية قمت بها، وتركنا خلفنا حصاناً شارداً لوحده في الصحراء، وصاحبه يركض خلفه. بينما السائح الايطالي يصرخ وقد وقع على الأرض.



قال لي محمود: «هنا أقاموا أوبرا عايدة. هذه الأوبرا انتظرناها سنة كاملة من الاعلانات والتشويق. وحين تفرجنا عليها على شاشة التلفزيون لم نفهم شيئاً مما قالوه. ولم نعرف ما هي الأوبرا ومن هي عايدة. ولماذا هذا البذخ... ونحن نموت من الجوع والفقر».

الموت هو سيد المكان والزمان، الموت حاضر بقوة في الجوار. لذلك اقترح عليّ سعد ومحمد أن أزور مقابر قايتباي، حيث يقطن آلاف الناس في المقابر التي فرشوها وسكنوها وأصبحت مثل الشقق المفروشة.

فمن مقابر آلاف السنين انطلقنا الى مقابر القرن العشرين، وبدأت أشعر برائحة الآخرة، في ذلك النهار الحار، وبدأت الصور تتوالى على الشاشة المتلئة بالغبار، فتذكرت جنازة عبدالناصر حين شيعه الملايين على ضفاف النيل، وتجمعوا في أكبر جنازة تاريخية. ومرت أمامي جنازة عبدالحليم حافظ حيث انتحرت نسوة كثيرات لأجله، وتوالت مشاهد الولولة والزغاريد وحلقات الندب التي تملأ الفيلم المصري والرواية المصرية، فما قرأت رواية مصرية إلا وكان هناك جنازة أو مأتم، وتوقفت كثيراً - في سياق التداعي - أمام تمثال «كاتمة الأسرار» لمحمود مختار في متحفه وتلك الحالة الانطوائية الى الداخل. حتى ان مشهد ملايين الناس في ميدان التحرير الراكضين خلف الباصات يوحي بأنهم في جنازة ضخمة يشيعون شيئاً ما، ومر مثل لمح البصر في خيالي موت «فهمي» أحد أبطال نجيب محفوظ في ثلاثيته، وبكاء أمه «أمينة» وانزواء أبيه أحمد عبدالجواد، وبعدها موت الشقيقة وأطفالها. حتى ان النسوة في الشارع يغلب عليهن ارتداء الثوب الأسود فستاناً أو جلابية، كأنهن رايات سود، ترفرف على الأرض التي خرج منها «كتاب الموتى» أقدم نص شعري كتبه الفراعنة.

مقابر تتحول إلى أحياء، وأحياء تتراكم كالمقابر!

هل يتوارث المصريون رعشة الحزن. وشفافيته؟ وحين لمحت النيل تحول فجأة في مخيلتي الى جنازة أوزيريس أعظم آلهة مصر القديمة، وهو حامي الموتى الذي قتل وبعث بفضل زوجته.

أصريت على ركوب الميكروباص في طريقي نحو مقابر قايتباي، وانحشرت مع الركاب لأشم رائحة عرقهم وأسمع أصواتهم وهمهماتهم واستنكاراتهم، وبدأ الركاب يتزايدون بشكل عجيب وغريب كأننا في يوم القيامة. أجساد متراكمة على بعضها البعض، في جدارية من النساء والرجال والأطفال، وجميعهم في طريقهم نحو البيوت الترابية المنخفضة وليس نحو عسل السماء ولبنها.

لحظة وصولنا، خرجت من الميكروباص بصعوبة، وكدت أنسى رأسي بين الركاب. ومن فوق أوتوستراد مدينة نصر. لاحت لي المقابر المفروشة للإيجار. هنا مقابر عائلات وباشوات، لا يقطنها حفارو القبور أو غاسلي الأجساد وانما الآلاف المؤلفة من العائلات.

دخلت وبسمل صاحبي: طريق ترابية، أقفاص وأضرحة وناس بملامح ترابية، وتأكدت أن الانسان ولد من طين فعلاً. تلك السحنات القاسية المتعبة بدت حنونة رغم شراسة نظراتها التي كانت تحدق بنا. عيناي تتخطفان الى تلفزيون ملوّن على ضريح عائلة المنيلاوي تارة والى بابور كاز على قبر مجاور تارة أخرى حيث امرأة بدينة تطبخ في حلّة وحولها قطار من أطفال، ورجل يدخن الشيشة ماداً قدميه على قبر صغير. توقفت قليلاً لأتأمل المشهد، لكن الرجل أخذ نفساً عميقاً حين لمحني، ونظر اليّ شزراً فبادلته بنفس عميق لأضبط نبض قلبي بعد أن أخبرني سعد انه: «هنا في هذه المقابر يقطن البلطجية وباعة المخدرات وهم يتحدون الشرطة ويخشون الغرباء».
فعقب محمد: «وانتبه أيضاً على الحقيبة من لص عابر. ولا تنسَ أن معظمهم من أفقر الناس» في تلك اللحظة أو بعدها بقليل، قفزت قطة من أحد أقفاص المقابر، وتبعها كلب ينبح، وخلفهما امرأة تحمل عصا: «حتة اللحمة يا أولاد الكلب».

حاول سعد أن يطمئنني: «لا تخف انهم أموات جميعاً، من الراقدين تحت التراب الى الراقدين فوقها». وتبسمت حين رأيت فوق أحد الأضرحة دكاناً صغيراً لبيع المرطبات وزجاجة كوكا كولا على شاهد قبر! «حاجة سقعة يا بيه» ومن احدى الزوايا لمحت ضريحاً ضخماً مغطى بسجادات من الآيات القرآنية. وعلى حائط مجاور أفيش سينمائي لنادية الجندي، ثم سمعت صوت عمرو دياب يصدح من احدى المسجلات، مترافقاً مع صوت زمور اسعاف أو شرطة! وقد شعرت برعشة خطر خفيفة، بسبب تلك العجوز التي كانت ترقبني وهي تدخن وتسعل.

حاول بعض أحفاد العائلات الحفاظ على مقابر أجدادهم، فوضعوا حراساً على الأقفاص، لكن الحراس استغلوا ذلك وحولوا بعض الأقفاص الى غرف مفروشة للإيجار شهرياً أو يومياً لمن يريد قضاء متعة عابرة أو لمطارد أو هارب من السجن.

ماذا عن ثقافة المقابر وتعبيراتها واشاراتها؟ «وحده خيري شلبي الذي يقطن في المقابر كتب عن تجربته». كما يقول سعد ويردف: «ناهيك عن بعض أفلام السينما التي صورت السكان بشكل ساذج وسطحي ومضحك بالاضافة الى عشرات التحقيقات الصحافية العابرة وخصوصاً الأجانب» فتساءلت: «ترى هل تتحول هذه المقابر الى آثار سياحية... من يدري؟» ولكن المفاجىء أكثر هو أن تتحول المقابر الى أحياء شعبية، والأحياء الى ما يشبه المقابر المتراكمة فوق بعضها البعض. فمثلاً في منشية ناصر يقطن حوالى ثلاثة ملايين مواطن، ومعظمهم عاطلون عن العمل أو انهم يعملون في تجارة الحشيش أو في تجارة المزابل، التي يتم تفريغها، وتقسيمها، وتصنيفها. وحين أجرت احدى المجلات الأجنبية تحقيقاً مصوراً عن



الموضوع، أثارت فضيحة، حيث ظهرت الكنائس ممتلئة بالزبالة.

في اللحظة التي تجمع فيها الأولاد خلفنا، بدأنا نحث الخطى بعيداً عن خطر وهمي، ثم وقفنا فوق الجسر المشرف على المقبرة. وتأملت هذا المشهد السوريالي، انها خرافة عيش، هل ينفجر هذا الضغط؟ هل تبدأ القيامة؟ وفجأة انطلق صوت اذان المغرب من مئات المساجد، عندها قال لي سعد: «صوت الاذان هو الذي يحقق التوازن في المجتمع المصري». انهم يستسلمون لقدرهم، مؤمنين بيوم آخر، انهم ورثة الأجداد، ورثة أوزيريس وبعثه...

من أقفاص الموتى وجيرانهم الجدد توجهنا الى قفص «الحسين» ومقامه. فهو لا يبعد كثيراً عن مدافن قايتباي. الفاطميون هم الذين أتوا برأس الحسين من العراق، وشيدوا له مقاماً في مصر، ليتباركوا به. ويعتبر مقام الحسين من أكثر المقامات تقديساً، وفي باحته الخارجية يتجمع المتسولون والمعاقون، هو المخلّص، رأسٌ تحول الى رمز، وحول القفص كانوا يدورون، ويتلمسون الدرابزينات النحاسية، يلهجون بالأدعية، امرأة تبكي زوجها الذي اختفى في الخليج، وأم تدندن: «يا حسين... لم يعد ولدي من ألمانيا». وأب يدعوه لأن ينجّح ابنه في امتحانات الثانوية العامة. حول القفص تجار.وفقراء نساء وصبايا، حاسرات ومحجبات، أطفال وجنود. ودمع كثير.

«من هذا المقام استوحى محفوظ وإدريس وحقي أبطال رواياتهم. الأبطال المشبعون بالشفافية والحزن، والبحث عن لحظة توازن». قال سعد وأصرّ على مفردة توازن في كلامه، فالمصريون عموماً مؤمنون بأهل البيت، ولكنهم لا يصلون الى حدود الكربلائية، فهم يحتفلون بعيد ميلاد الحسين، رقصاً وغناء وفرحاً، انهم يبعثون البطل والشهيد، لتتحول الجنازة الى عرس. انهم يحتفلون بالولادة أكثر من الموت.

إن أقصى حدود الحزن هو الضحك، لذلك لا يكف المصريون عن القاء الطرفة واستحضارها، فالسخرية هي وجه آخر للبعث والتوازن، وفي ميدان الحسين انطلقت الزغاريد فجأة، من نسوة أخذن يتجمعن، وحولهن يتجمع الشباب، «سيأتي بعد قليل عروسان ليتباركان من الحسين، ثم يرقصان، فتلتقط لهما صورة تذكارية. قال محمود... تختلط أجواء المآتم بمناخات الأعراس؟ كيف تتشابك اشارات وطقوس الموت والحياة مع بعضها؟ لعله السر المصري في العيش.

لم نعرف ما هي الأوبرا ومن هي عايدة؟

ويسكي بالأرواح

كنت في طريقي أنا ومحيي الدين اللاذقاني (شاعر سوري) الى منزل غالي شكري في الزمالك، فلفت انتباهي سرادق عزاء قبطي امتد ليصل الى الشارع، وكان نفر من المعزين يتوزعون على كراسي فخمة، وسجادات تصل الى طرف الرصيف، في أجواء أبهة مصطنعة، قال لي غالي شكري: «هذا العزاء لواحد من أقاربنا، وقد تكلفوا ألوف الجنيهات، لبناء هذا السرادق وحواضره. والعزاء يتحول الى مناسبة لعقد الصفقات»، وهنا. تحول الموت من الجلالة والمهابة والبساطة الى تجارة ومناسبة لعرض العضلات المالية. وغيرها من الاستعراضات!

في سهرة اليوم التالي اجتمعنا في منزل سعيد الكفراوي (قاص) وتحولت السهرة في منتصفها الى جلسة استذكار وبعث أرواح موتى من أصدقاء وأقارب. حيث رفرفت روح الشاعر أمل دنقل فوق الرؤوس وكيف كتب أجمل قصائده أثناء مرضه بالسرطان. وكيف فتش ابراهيم أصلان عن دواء له في كل الصيدليات «لم أستطع أن أراه، كنت أخشى ذلك... وحين لمحته، كان قد تحول الى عظم...» تلقف





سعيد الكفراوي الحديث عن أصلان وروى كيف مات صديقه القاص يحيى الطاهر عبدالله في حادث سيارة. «كان يحيى سكيراً يحتفل بموته... كأنه يحدس بذلك... لم يكرّمه أحد حين مات» ثم تبادل الكفراوي وأصلان ذكرياتهما عن صديق تشكيلي شاب أخبرهما انه سينتحر في تلك الليلة، وانتحر فعلاً.

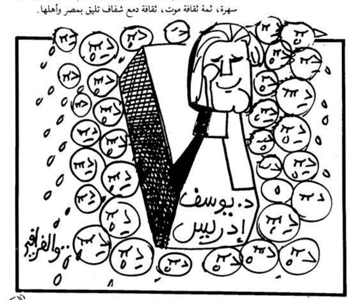
وحاول غالي شكري أن يفتح مسارب أخرى للذكريات، أن يحولها الى مقلب آخر، بطرفة ما، لكن محمد القيناوي (محرر في الشؤون العربية في مجلة «صباح الخير») لم يستطع منع ذاكرته المشبعة بالاعتقال من استرجاع عشر سنوات ضاعت من عمره بين الزنازين المتفرقة وتقطيع الحجارة في الأشغال الشاقة، متذكراً الذين ماتوا قهراً، كذلك الأحياء ـ الأموات بسبب التعذيب.

لم تكن الأحاديث عن الموت وتفاصيله، فجائعية، بقدر ما كانت استحضاراً خفياً لذكريات ودموع تتساقط في كؤوس الويسكي خصوصاً ضحكات الكفراوي وأصلان وهما يتبادلان أنخاب الأصدقاء والترحم عليهم.

حاول غالي شكري، أن يمنع الاكتئاب عن الحاضرين، ولم يستطع بسبب انتقال الحديث مرة أخرى الى الأحلام والكوابيس، وأن هرّ الأسنان في الحلم يعني موت صديق أو قريب.

حين غادرنا السهرة، كنت أسمع خلفي ضجة بكاء، من مكان ما، ولم أعلم انني كنت أنا الذي يشهق من الداخل، وحين نزلنا فجراً من مقهى الأوديون، كان هناك قمر يسطع في السماء، وقبل أن يودعني محمد القيناوي، روى لي ـ على ذمته بالطبع ـ كيف أن كامل الشناوي كان يحب المطربة نجاة الصغيرة، واستأجر لها شقة، وفي أحد الأيام فوجىء بيوسف ادريس بالبيجاما في تلك الشقة. عندها كتب قصيدته الشهيرة، «لا تكذبي إني رأيتكما معاً».

من مقابر الأهرام الى مقابر قايتباي. ومن مقام الحسين حتى آخر سهرة، ثمة ثقافة موت، ثقافة دمع شفاف تليق بمصر وأهلها.



أيها الاخوة المواطنون...

... انهم يقتاتون من ٥ حزيران، يجترون الهزيمة، وكأن حادثة الطائرات التي تحطمت ذات فجر، لم تكن منذ ٢٥ سنة وانها البارحة، في تلك السهرة في أحد المقاهي الشعبية، كان هناك الناقد عبدالرحمن أبو عوف، وإبراهيم عبدالمجيد، وعبدالوهاب الأسواني. وكان عبدالناصر بطل السهرة، سواء بدا محبوباً أو مكروهاً، مرغوباً أو منبوذاً.

ومع زجاجات «الستيلا» والفول النابت والترمس والكعك، والبيرة خارت ذكريات الأصحاب: أين كانوا ليلة ٢٣ يوليو، وحين أمم القناة، ليلة تقديم الاستقالة، وبدأوا يحاكمونه، ويعاتبونه، كانت الدموع تطفر من عيني ابراهيم عبدالمجيد والبحّات تتعمق في صوت الأسواني، والارتجافات تتابع في يد أبو عوف! ولا تختلف هذه السهرة عن أية سهرة أو جلسة أخرى، لجيل، ترمّد في ٥ حزيران، وتوقف الزمن بالنسبة له عند العام ١٩٦٧. في معركة استنزاف مع الكتابة واستحضار الذات، من معتقلات عبدالناصر الى لحظة «حنحارب». كانوا يتهدجون في الكلام، كأن البطل لا يموت.

ترى ألم ينهض اليابانيون من هزيمتهم؛ ترى ألم يتخلص الألمان من كارثتهم؟ وأسئلة عن خبز الديموقراطية أو ديكتاتورية الخبز. بين السد العالي وبين حرية الصحافة ومجانية التعليم، أو تعدد الأحزاب. من تصدير الثورة الى اليمن وليبيا وسوريا الى استيراد القروض والفنادق. في كل سنة الجميع يتذكرون الثورة. من السياسي الى الديني، ومن المثقف الموالي الى المعارض، بالاضافة الى سيرة برلنتي عبدالحميد وعلاقتها بالثورة وعبدالناصر من خلال زوجها المنتحر عبدالحكيم عامر.. وكتاب «المشير وأنا». من الايمان الأعمى بالناصرية الى فضائحية الثورة. وأتساءل ماذا بقي من عبدالناصر سوى هذه السهرة من الدمع على زجاجة بيرة!

يبدو كأن الخارج يعود لينتقم من أخطاء ثورة أو أوهامها. الخليج حاضر بقوّة في الثقافة والشارع بعد أن كانت الناصرية تحاول التغلغل في اليمن والكويت. والمشاريع القومية العربية والوحدة مع السودان، ووادي النيل، ترتدّ الآن تهريب أسلحة من السودان للجماعات الأصولية، بالاضافة الى هجرة كثيفة للسودانيين نحو مصر، والذين كانوا في أفغانستان مع الثوار عادوا الى مصر، مدربين ومتشبعين بالروح الأصولية أكثر، والامبريالية الأميركية أصبحت حليفة وتطالب بفوائد قروضها، ومن عدم الانحياز وتيتو، الى فرقة صغيرة الى سراييفو، وياسمين الخيام تغني لمسلمي البوسنة والهرسك، ومن تأميم القناة الى تهريب المخدرات عبر صحراء سيناء نحو عروق المصريين.

هل ينتقم الخارج الآن، من ماضٍ عنيد؟ هل تدفع القاهرة الآن ثمن حسابات قديمة؟ هل هو الثأر القديم يطل برأسه تحت شعار العالم الجديد؟

من رُد قلبي، واحنا الشعب، الى الارهاب والكباب وأيس كريم في جليم.

من واقعية اشتراكية بلا روح الى فانتازيا بلا طعم، الثقافة المصرية تعيد الآن خلط أوراقها، وتحاكم نفسها في السر والعلن، انها تروّض خيبتها، بقسوة حتى أقصى درجات الحب. □

حضرة الباشا...
دشداشة

■ هناك خلافات جوهرية بين المثقفين المصريين حول الدور الخليجي المتنامي في الثقافة المصرية. ويدل على ذلك الكلام الذي تسمعه في المقهى أو تقرأه على صفحات الجرائد، عن تمويل خليجي لمعظم الندوات والمهرجانات الثقافية والمشروط بموقف سياسي معين.. وثمة رشاوى ضخمة وغيرها من الاتهامات الموجهة الى مثقفين ومسؤولين ومنشطين في الحياة الثقافية المصرية.

«حين انفجرت المعارك في عاصفة الصحراء. أصابتنا الشظايا في صدر ثقافتنا». هذا ما يقوله أحدهم الذي رفض أن يذكر اسمه، خوفاً من أن يحارب في وظيفته ويتابع: «لقد أصبح الرقيب الخليجي يشرف على كتبنا ويتهمنا بالتعرض للمحرمات والمقدسات، فنتعرض للمصادرة ونحارب بكافة الأشكال». وقد أخبرني أن مسرحياً شاباً يدعى منصور محمد منعت مسرحيته «اللعبة»، أثناء مهرجان المسرح التجريبي، بأمر من دولة خليجية بحجة إهانة الأماكن المقدسة. وإضافة الى المنع، تعرض هذا المسرحي للحصار المادي فطرد من وظيفته، وبسبب الضغط النفسي مات منصور محمد كمداً وهو في ريعان الصبا، ثم أردف الشاب يقول: «انهم يجبروننا على الانتحار».

وأكمل قائلاً: «ان الرقيب الخليجي يسيطر على مسار السينما المصرية وذلك من خلال سوق الفيديو، فالاعلانات يحتكرها الوكيل الخليجي، وهكذا تم انتاج مئات الأفلام من سينما المقاولات. حتى أن ممولاً خليجياً، ينتج لنجمة معينة لأسباب خاصة، وبعضهم يحارب السينما المصرية من خلال اغراء الممثلات على ارتداء الحجاب بأموال طائلة. ويقال أن من الأسباب الرئيسية لانحدار المسرح المصري جمالياً، هو جمهور الصيف الخليجي، لقد سرقوا أرشيفنا المسرحي بأبخس الأثمان، وفي الموسيقى هناك جيش كبير من المطربين والمطربات يعمل في خدمة السائح الخليجي، وتطلبه الاستهلاكي للصرعات. وهذه الموسيقى تدعى كاسيتات الصيف. حتى ان مثقفينا أصبحوا موظفين بيروقراطيين في الصحافة الخليجية، يكتبون تحت وطأة قائمة من الممنوعات. لم تعد القاهرة عاصمة للتنوير وانما سوقاً للمستهلك الخليجي في السياحة والثقافة والسياسة والفتاوي الدينية ودور النشر... وكل ذلك عبر الوظائف والمناصب والجوائز والهدايا».

ووجدتني أسارع إلى التساؤل التالي: هل يتحول النفط الخليجي الى مشجب جديد نعلّق عليه هزائمنا؟

فلكثرة ما سمعت من مفردات حول النفط والخليج وقوات الانتشار، أحسست بأننا أدخلنا شعاراً جديداً الى قاموسنا القديم فبعد استهلاك شعارات ومفردات مثل: النكسة، الهزيمة، الاستعمار، الامبريالية، ثمة يافطة عريضة يجري رفعها، تفيد بأن الخليج هو سبب مصائبنا، بعد أن كانت اسرائيل سبباً في تخلفنا وانهيارنا، وكذلك الفرنسيون والانكليز والأميركان. تساءلت ولم أجد جواباً مقنعاً، فنحن عادة نميل الى عدم كشف أوراقنا الداخلية، ونلجأ دوماً الى اتهام الخارج دون أن أنسى أو أغيّب أهمية ما يهجس به صاحبي



في كلامه عن رائحة النفط المتسربة من مطبخ الثقافة المصرية والعربية.

تبدو العلاقة بين ثقافة القاهرة وباقي العواصم العربية في حالة توتر دائم، ومبالغة في الرهاب الثقافي، ويحرص المصريون على نقاوة وطهارة ثقافية من أي دخيل أو غريب، مع الاصرار على أنهم السباقون في كافة الميادين. ويصل نقد الخارج معهم الى حد الاتهام بأن ثمة مؤامرة؛ وصولاً الى حالة بارانويا يمتزج فيها جنون عظمة بعقدة اضطهاد.

أثناء ندوة في أتيليه القاهرة، هوجمت القاصة الكويتية عالية شعيب من بعض المثقفين المصريين بشكل شخصي فإحدى المهاجمات وقفت وقالت لها: «لا يكفي انك قاصة رديئة وإنما أيضاً كويتية... هل أتيت الى القاهرة لتشترينا بفلوسك؟». وعندما طرحت رأياً طلبت فيه بأن لا ينظر الى الثقافة الخليجية بكونها برميل نفط فقط فهناك تجارب شعرية وقصصية، ذات نفس تجديدي، من عمان الى البحرين ومن الامارات الى الرياض والكويت، وهناك عشرات الأسماء الخليجية التي تحاول أن تضيف الى مخزون الثقافة العربية شيئاً وليس بالضرورة أن يتحول كل مثقف خليجي الى موزع هدايا ورشاوى، عندها انفجر صاحبي وقال: «أنتم اللبنانيين تجار، تسيطرون على الصحافة الخليجية، وتحاربوننا نحن المصريين وتتحكمون بتوزيع أفلامنا. أنتم تلعبون دور السمسار بيننا وبين الخليج، بالإضافة الى أنكم تسرقون مطبوعاتنا من خلال دور نشركم. وتحاولون رشوة سينمائيينا للعودة الى استديوهات بيروت».

... انهم يعهرون نساءنا وثقافتنا وصحافتنا

وقد أخبرني أحدهم أنه في الماضي «عندما كنا نذهب الى مهرجان المربد كان العراقيون يأخذوننا الى الجبهة مع إيران، والآن نذهب الى مهرجان الجنادرية، فيأخذنا السعوديون لأداء العمرة، ولم يختلف علينا شيء سواء كنا في ثياب الميدان أو في ثياب الاحرام».

ثمة عمى ألوان في رؤية الآخر، كأن الثقافة المصرية لا تخلو من عيوبها الخاصة، ويكفي القول إن السينما المصرية رغم انها الأولى في العالم العربي كماً ونوعاً، لم تستطع أن تطور تقنياتها وإداراتها التي أصابها الترهل، لم تتجدد كما قالت فاتن حمامة لاحدى المجلات. فمعظم المخرجين يعانون من التخلف التقني في المعدات، من الصوت الى المونتاج وغير ذلك من العناصر الفنية. حيث انه لم يجر تحديث لهذه الأجهزة منذ ثلاثين عاماً.

وبالنسبة للتحريم والفتاوى الآتية من الخارج فالذاكرة ممتلئة محلياً بمعارك طه حسين وتكفيره. بسبب كتابه «في الشعر الجاهلي» وممتلئة أيضاً بالفتاوى التي لا تحصى بحق الأدباء والتي صدرت عن الأزهر أو من السلطة وذلك قبل حضور السيد «نفط» الى الساحة ليزيد الى الطين بلّة. كما انه من عدم الانصاف اعتبار الخليج خارجاً صافياً فالصحافة الثقافية الخليجية يشرف على تحريرها مثقفون مصريون ويوجهونها حسب أسلوبهم ورؤيتهم، ولا ننسى كذلك دور آلاف الأساتذة المصريين في الجامعات الخليجية والعربية، الذين يتمتعون بدور فاعل في ثقافة تلك البلدان عبر مناهج تربوية أو تعليمية أثرت وتؤثر على أجيال عديدة.

ينقسم المثقفون المصريون حول دور الثقافة الخليجية، فيقول ابراهيم عبدالمجيد الذي لم يستطع الصمود أكثر من تسعة أشهر كموظف في السعودية، وكتب عن تجربته في رواية «البلدة الأخرى» حيث تحوّل الى صائد فئران: «لقد واجهت الذل والاهانة بكوني مصرياً وعندما عدت الى القاهرة رأيت الثري الخليجي يعهر نساءنا وثقافتنا وصحافتنا، انهم يحولوننا الى خدم في بلادهم وفي بلادنا أيضاً». بينما يعتبر غالي شكري: «اننا كلنا في عصر النفط خدم، بما في ذلك ملوك وأمراء النفط أنفسهم. انه العالم الجديد الذي حوّلنا جميعاً الى ضحايا بنسب مختلفة».

في احدى الجلسات قال لي الفنان التشكيلي عدلي رزق الله: «قد يختلف المصريون في كل شيء مع بعضهم، ولكن حين يهاجم أحد العرب ثقافتنا فإننا نتحد جميعنا ضده في عصبة واحدة».

لا يمكنك أن تنتقد الحياة الثقافية المصرية إلا بحذر، حتى لا تقع ضحية كلام ملتبس، كأني بالثقافة المصرية تحتاج دائماً إلى عدو، سواء من العرب أو الغرب، وكل ذلك من أجل حب مصر وبقاء مصر، وهذا الكلام المبالغ في وطنيته قال عنه محمد حسنين هيكل في مقابلة مع مجلة «نصف الدنيا»: «لست متحمساً لنوع الوطنية المسطحة التي نسمعها الآن عن حب مصر... وعن الولاء لمصر، وعن الوفاء لمصر الى آخره... هذه كلها أعراض أزمة وليست دلائل حب... هناك خلط شديد يحاول أن يجعل الوطنية نوعاً من الهستيريا... الوطنية ليست حفل زار أو حلقة ذكر».

فالظاهرة الشوفينية والقطرية والمناطقية بدأت تبرز في القاهرة وغيرها من العواصم العربية الأخرى، في القاهرة تكتشف أورام الثقافة العربية كلها. ولأن القاهرة هي القلب، تخشى على نبضاتها المتسارعة، وتخشى عليها من ارتفاع في الضغط الداخلي، والانعزال إلى الأقصى.. فكل الآخرين أعداء! □



أبواب في الممنوع والمرغوب

في باب اغتصاب الشارع والكتاب

■ حين تدخل الى «باب العتبة» تشعر بأن القيامة قد قامت، وانك في يوم الحشر. ألوف من البشر في حركة لا تهدأ، وأصوات ممزوجة بالشتائم والصراخ، مترافقة مع أبواق ألوف السيارات ومئات الباصات. انه شارع أصوات. فتسمع تسجيلات شيخ الكاسيتات ياسين رشدي وهو يحدثك عن عذاب القبر ويوم الآخرة. يقابله الشيخ الشعراوي في تحليلاته الفانتازية من أن اختراع المحرمة أهم من الوصول الى القمر، ويقابلهما عمرو دياب وأصحابه في أغانٍ عن الحب والحبيب بين السكر والزبيب. «وما تخافيش أنا مش ناسيكي»، يختلط ذلك مع أصوات باعة الأقمشة والقطْنيات وبناطلين الجينز حيث يلوح بها شباب وفتيان حملوا على الأكتاف كأنهم في تظاهرة: «قرّب. جرّب الجينز الأمريكاني». وسط هذه الألوف من البشر تم اغتصاب فتاة أمام أعين الجميع، ولم يتحرك أحد. ثلاثة شبان هاجموا الفتاة، واغتصبوها بكل سادية وسط هذه الألوف من الأعين والأصوات!

دلني صديقي الصعيدي الى مكان الحادثة، وكان يقف هناك بائع مرطبات ينادي «عاوز حاجة سقعة يا بيه». ولم أصدق مثل كل الذين استنكروا تلك الحادثة، فقد تحولت «فتاة العتبة» الى مادة خصبة لرجال الدين في الكلام عن الأخلاق والتربية الدينية والفلتان الجنسي، أما المخبرون الصحافيون، فقد أخذوا ينكشون في سيرة الفتاة والشبان. وقال رئيس الجمهورية وسط هذا الهلع الأخلاقي: «ان نساءنا أشرف نساء العالم»، وبدأ الحديث في الصحافة عن غياب النخوة عند المواطن المصري، وتحوله من الاحساس الجماعي الى الاحساس الفردي. وبعد الحادثة تم تخصيص بعض الباصات للنساء فقط، مما أثار سخط بعض المثقفات لأنه يؤدي الى التمييز بين المرأة والرجل. واستغل الأصوليون الحادثة مشيرين الى ضرورة الحجاب. ولكن ما يثير العجب في قضية «فتاة العتبة» انه ما زال ينظر فيها في المحاكم، والنقاش ما زال يدور حول تفاصيل الاغتصاب: هل كانت ترتدي الكيلوت أم لا أثناء الاغتصاب، وهل هي التي أثارت الشباب؟ وأين اختفى الكيلوت؟!

لا يبعد سور الأزبكية كثيراً عن باب العتبة، حيث عشرات المكتبات والأكشاك الصغيرة المنظمة على الأرصفة لآلاف الكتب والمجلات القديمة، من الأدب الى السياسة والفلسفة والأزياء، لكن



ما يميز هذه المكتبات انها تهتم ببيع الكتب المصادرة والمجلات الممنوعة، والأكثر بيعاً من الممنوع هو الكتاب الجنسي. وحدثني صديقي الصعيدي عن علاء حامد الذي حُكم بالسجن، مرة أخرى، بسبب كتابه الأخير الذي يتضمن نصوصاً جنسية ناضحة، بعد كتابه الأول الذي اتهم فيه بالكفر والالحاد. لكنه استأنف الحكم، مع انه هذه المرة سيحاكم بسبب الفضائحية الجنسية. وتقول الاشاعات في القاهرة: ان علاء حامد تعرض في قريته للتهديد. وانهم حاولوا اغتصاب ابنته رداً على كتابه. ولقد دافع معظم المثقفين المصريين عن علاء حامد، ليس بسبب موهبته المتواضعة وكتابه السيء فنياً، وانما انطلاقاً من الدفاع عن حرية التعبير.

ثقافة المكبوت والممنوع ظاهرة ينضوي تحت لوائها العديد من أنصاف الكتبة والباحثين عن شهرة مجانية، وهم بذلك يحرمون الآخرين، من فرصة الكتابة الابداعية الخلاقة التي تقوم بنبش ثقافة المحرمات.

لقد خصصت مجلات كثيرة ملفات حول ظاهرة منع الكتب ومصادرتها ومنها مجلة «أدب ونقد» عدد (٧٤) تحت عنوان «لا تصادروا على الفن بسبب الدين»، وذلك بعد أن نشر محمد عبدالسلام العمري قصة بعنوان «بعد صلاة الجمعة» في جريدة «الأهرام»، وبعد أسبوعين نشر الشيخ محمد الغزالي في عموده في جريدة «الشعب» هجوماً عنيفاً على القصة وكاتبها، وأعادت «أدب ونقد» نشر القصة مع تعليق الشيخ الغزالي بالاضافة الى تعليقات وتعقيبات من المثقفين المصريين حول المصادرة. وذلك تحت سؤال هل يجوز لرجل الدين أن يعيّن للمبدع حدود ما يكتب وما لا يكتب؟ لكن هذا الملف في الدفاع عن العمري وقصته هوجم من قبل مثقفين آخرين كابراهيم أصلان وإبراهيم عبدالمجيد، لكون العمري برأيهم، يبحث عن شهرة مجانية ولا يستحق النجدة، والقصة ركيكة، والشيخ الغزالي في رده لم يسمّ القاص ولم يكفره.

تختلط الأمور عليك في ثقافة الممنوع والمرغوب، والباحثون من المؤلفين عن الأضواء، أو عن ضجة مفتعلة كثر، ويضعون نصب أعينهم تجربة محفوظ في «أولاد حارتنا» الممنوعة في مصر منذ أواخر الخمسينات، بأمر من الأزهر، لكن من جهة أخرى يبدو أن المصادرة أصبحت ظاهرة مألوفة، فقد منعت رواية «العراة» لابراهيم عيسى لحجج جنسية وتمت مصادرتها. فاختلف المثقفون مجدداً تارة دفاعاً عن الروائي الشاب وحرية التعبير، وطوراً هجوماً عليه لأنه هو الذي حرّض على مصادرتها ليكسب جرعة من الشهرة!

يُروى عن قاسم أمين انه أثناء معركته من أجل حرية المرأة، ان أحدهم جادله قائلاً: «يا أستاذ قاسم، هل حرية المرأة تعني انك توافق على أن أضاجع زوجتك؟» وانطلاقاً من هذه الخبرة، نسوق أمثلة كثيرة عن ثقافة الالتباس التي تتعامل فيها الرقابة مع النص، فالرقيب السياسي أو الديني يحوّل النص الى حقل اشارات ودلالات لا علاقة لها بالمعنى والمغزى الأساسي، انه يفتش عن تفاصيل صغيرة من خلال قائمة ممنوعات تزداد يوماً بعد يوم، ويرافق ذلك، انتشار واسع في مادة الاثارة الصحافية المصرية، اللاهثة وراء الفضائح الاجتماعية والسياسية والأدبية، من جرائم القتل والاغتصاب الى المهربين، ومن تجار مخدرات وأموال، الى التشهير الأدبي، وغيرها من الأخبار التي تفرد لها صفحات كاملة، وأعداد خاصة، حتى ان جريدة «الأخبار» أصبح لها ملحق خاص بعنوان «أخبار الحوادث» مخصص لأخبار الجريمة وحواضرها، واستطاعت «روز اليوسف» خلال ستة أشهر أن تزيد عدد مبيعاتها بالألوف، بسبب الاثارة والمشاكسات والبحث عن الأسرار، والسبق الصحافي.

ثمة محاولات لكشف المكبوت وان كان بعضها يميل الى الفولكلورية والتجارة والاثارة الرخيصة، ولكن هذا يكشف عن جرأة في القول وتسمية الأشياء بأسمائها دون ترميز أو غمز، فبعيداً عن الصخب المصطنع ثمة اشارات في الثقافة المصرية تدل على التعرية ونقد الذات من تسليط الضوء على ثقافة الغرائز الى النقد الديني وكسر المحرم.

هل تعيش الحياة الأدبية اليوم مناخات تشبه أيام طه حسين مع الأزهر وتكفيره؟ هل تجري وراثة شرعية لـ «أولاد حارة» محفوظ المحجوبة؟

من اغتصاب «فتاة العتبة» الى اغتصاب الكتاب، هناك في القاهرة من يقف بثبات دفاعاً عن شرف الابداع وسمعة الكاتب.

في باب السمعة والاشاعة

في مقابل هذه الفضائحية، تحرص الثقافة المصرية على «سمعة مصر»، وتحت هذا الشعار تتوالى الاتهامات والمواقف: دعوة الى محاربة يوسف شاهين بعد فيلمه «القاهرة منوّرة بأهلها»، لأنه صوّر العالم السفلي للقاهرة ووجهها الآخر، مهاجمة فيلم «ناجي العلي» لأن الشخصية المصرية في الفيلم أساءت الى سمعة مصر! وبعض المثقفين يتهمون الصحافة العربية بأنها تحاول النيل من المثقفين المصريين بتحريضهم على بعضهم البعض، ويهاجم فيلم تسجيلي عن المرأة المصرية أثناء أحد المهرجانات لأنه أساء الى نساء مصر! وتكر اللائحة... ان شعار «سمعة مصر» سلاح أخلاقي، وحجة جاهزة دائماً، تنتج عنها تدابير قانونية من منع وحذف، بالاضافة الى قدح وذم صاحب العمل وشتمه، وتتحول «مصر» الى طوطم فلا يمكن التعرض لثقافتها أو نقدها لا من الداخل ولا من الخارج. ويتحول كل نقد الى جريمة شرف، ولا يسلم هذا الشرف من الأذى حتى يراق على جوانبه الشتم، فالشتيمة مجاورة أو متغلغلة في الرد النقدي، وما لفت انتباهي هو كلام عادل امام في مجلة «روز اليوسف»: «نحن أكثر شعب بيشتم بعضه» فتذكرت جملة يوسف وهبي الشهيرة: «شرف البنت زي عود الكبريت ما يولعش إلا مرة واحدة». والاشاعة تنمو بسرعة، كنار في هشيم الحياة الثقافية، وهي سلاح حاد يمكن استعماله في أية لحظة، أو موقف، لتدمير الآخر، فقد أخبرني عدلي رزق الله عن اشاعة تعرض لها حيث انه أثناء التحضير لأحد المعارض في نقابة الصحافة كتب أحدهم خبراً في احدى الصحف المحلية، ان عدلي رزق الله أقام معرضاً منذ فترة في اسرائيل وأردف قائلاً: «عشت حالة رعب، واستعدت اعتباري في معركة ضارية، وتضامن معي بعض الزملاء، واعتذرت تلك الجريدة، وطرد ذلك المحرر الذي كتب الخبر بالتنسيق مع أحد الفنانين الذين يكرهونني... وهكذا كدت أذهب ضحية اشاعة!».

في باب العنف والغضب

لا يختلف «باب اللوق» عن سينوغرافيا الأحياء والأسواق الشعبية الأخرى، حيث تبدو مفارش السمك، وعربات البطيخ، والمانجا، وحزمات قصب السكر وأقفاص الأرانب والفراخ. كنت أمشي وسط فاكهتي الأرض والبحر، ولم أنتبه كيف اندلع العراك في السوق، فتفخشت رؤوس البطيخ وسال دم رأس صاحب الجلابية الرمادية ممزوجاً بزوم البطيخ الأحمر، وتفرق الناس بعضهم يراقب البعض الآخر ويضحكون. ومنهم من يدعو للصلاة على النبي ولعن الشيطان. وهذا الشجار لا يختلف كثيراً عن أي شجار في أي سوق شعبي من أسواق العالم، لكن ما يلفت الانتباه هو أن الحس الشعبي المصري، بدأ يفقد طرافته وعبثيته لصالح الحس العدواني، والعنف. ويلاحظ هذا من الاشارات الجديدة في الثقافة المصرية، من الشارع حتى عناوين الأفلام والمسرحيات التي تدور حول الارهاب والأكشن بالاضافة الى نوافير الدم في القصيدة، وجرائم القتل في القصة والرواية.

العنف في الحوار، وصل الى الاجتماعات النقابية، فأثناء انعقاد احدى الجمعيات العمومية لنقابة المهن التمثيلية، تحول النقاش الى مشادة، ومنع بعض الفنانين من الدخول الى المقر واقتحم عادل امام القاعة بسيارته وأدى الخلاف الى انقسام الجمعية بين الكومبارس والنجوم، ووقعت حالات اغماء. وتعرض مراسل احدى محطات التلفزة اللبنانية للضرب وحُطمت كاميرته عندما صرخ أحد الممثلين: «انهم يصورون عراكنا. . . ماذا نفعل بسمعتنا وسمعة مصر». ولم تنته المعركة إلا بإطفاء النور عن الموجودين على المسرح!

وأثناء ندوة سياسية في نقابة المهندسين، تم سحب المهندس عبدالمحسن حمودة من الندوة بالقوة وعلى مشهد من الحاضرين، وأُخذ الى حجرة جانبية، وتوالى على ضربه أربعة من الفتوات، والمفارقة هنا أن موضوع الندوة كان عن «الارهاب».

العنف يتغلغل، والخطر يدق على باب الحي الشعبي، وباب أي حوار ثقافي، والديموقراطية في مصر تبحث عن مخرج للحرائق الداخلية، فقانون الطوارىء ما زال ساري المفعول، والمثقف المصري أعزل لا يملك سوى صرخته، متمسكاً بجذوة من عصر التنوير، جريئاً في مواجهة قانون الدولة، وشرع الأصوليين. كأنه وحده في الميدان بين كل الشرائح الاجتماعية في مصر. يتأرجح بين لقمة العيش وماء الحرية. بين جزمة الدولة وخناجر الأصوليين. بين الوظيفة الحكومية ومكاتب الصحافة الخليجية. ضائع بين عيون أهل الحي المتلصصة على زواره، وبين عيون الرقيب الحكومي والرقيب الخليجي على نصه. يمشي وسط ألغام من الشائعات والشتائم، يحار بين التستر والانزواء الى الداخل، أو التحول الى نجم ثقافي وسط اضاءات كاذبة، أو يجادل ويحاور فينتهي مصروعاً برشقة رصاص، مثل فرج فوده.

ثمة غضب في الشارع، غضب متوارث كطوفان النيل، فهل يصبح المثقف المصري هو العروس التي يضحى بها، قرباناً، على مذبح هذا الغضب؟ ان أكثر ما يخشاه المرء هو تحول الثقافة المصرية الى أحجار تتبدل في شيشة يدخنها الآخرون على مهل. □



بين الجنة والنار

■ يبدو المشهد الثقافي المصري الآن أكثر حيوية واستيعاباً للحيز الابداعي من ذي قبل، بمعنى أن التغير السياسي الذي طرأ على بنية الحياة في مصر والمتمثل في رحيل السادات، قد أرسى لمرحلة جديدة في علاقة الدولة بالثقافة والمثقفين، حيث تم توسيع الهامش الديموقراطي قليلاً، بالإضافة الى احياء العلاقة الثقافية مع الخارج، والانفتاح على الثقافة العربية، بعد مرحلة من الانقطاع القسري أو الطوعي.

فالجامعات المصرية، أثناء مرحلة السادات، كانت لا تحتفي سوى بموضوعات تاريخية وقضايا لا تتقاطع مع الواقع، ولكن الصورة الآن اختلفت فأصبحت الجامعات تتمتع بفعالية حقيقية إن من حيث النقاش حول الابداع الجديد أو من خلال مؤتمرات وندوات للقصاصين والشعراء، بعد أن كان النقاش الأدبي في عهد السادات يعتبر من قبيل النشاط السياسي الموجه ضد السلطة، ويذكر أن احدى الجامعات قد جيشت كل طاقتها العلمية والمنهجية أثناء حكم السادات، لاعداد اطروحتي الدكتوراه والماجستير للسيدة جيهان السادات تحت ضغوط الترهيب والترغيب، وقد أصبحت السيدة جيهان فيما بعد، استاذة للأدب العربي في احدى الجامعات الأميركية!

ثمة طفرة في المهرجانات الثقافية والفنية المصرية التي ترعاها وزارة الثقافة، كمهرجانات السينما والمسرح، ومعرض الكتاب والندوات المتعددة، ولكن يؤخذ على بعض هذه المهرجانات ـ حسب الصحافة المصرية ـ أن معظمها يتم بتمويل خليجي بهدف ابراز الرأي السياسي لهذه الدولة أو تلك. والتي تلجأ الى تمرير موقفها السياسي من الأحداث على حساب الثقافة والمؤسسات الثقافية المصرية.

ومن جهة أخرى، فالمجلات التي كانت تصدرها الدولة في السابق (القاهرة ـ ابداع ـ فصول...) كان أقصى توزيع لها لا يتجاوز ٢٠٠ نسخة، وقد حققت خسائر فادحة للهيئة العامة للكتاب، مما حدا بسمير سرحان رئيس الهيئة بأن يستشعر هول الكارثة، إذا ما استمرت هذه المجلات في الوضع نفسه، فاتخذ قراراً شجاعاً وبدأ بعملية تغيير بادئاً برؤساء التحرير. وبدا الأمرُ عبارة عن نقلة نوعية خصوصاً عند عودة أسماء بارزة الى الواجهة تتمتع بثقل أدبي وابداعي مثل: أحمد عبدالمعطي حجازي وغالي شكري وجابر عصفور. حيث أصبح بامكانك أن ترصد علاقة جديدة بالثقافة من خلال تلك المجلات وانفتاحها على العالم العربي، عبر مساحات واسعة للتعبير، وانعطافة كبيرة في الأسلوب النقدي.

وتصدر الهيئة العامة سلاسل في الرواية والقصة والتاريخ والتراث، ويقابلها قطاع نشر خاص يدفع الى السوق بآلاف الكتب المزيفة

الداعية الى السلفية والشعوذة، وتتعرض الهيئة للنقد ولغياب السلسلة الشعرية حيث يقول المثقفون: انها لا تطبع سوى للنخبة أو لبعض المحسوبيات!

يعتبر أحمد الشهاوي (شاعر وصحافي) «ان مصر ليس لها نفوذ في العالم العربي لا اقتصادي ولا سياسي إلا من خلال الثقافة والفن، الكتاب والفيلم، لذلك أخذت الدولة تعي أهمية الدور الثقافي، فاهتمت بدعوة المفكرين والمثقفين العرب، الى المهرجانات والندوات والمؤتمرات.

يسخر معظم المثقفين المصريين من جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية لأنها تمنح أحياناً لأسماء لا علاقة لها بالابداع ونتاجه، كذلك تمنح الجوائز أحياناً لأسماء كانت تستحقها من زمن بعيد مثل علي الراعي أو يوسف إدريس ولويس عوض، وفي الغالب لا تجد الكثيرين من الذين ماتوا ولم ينالوا جائزة الدولة أو رضاها. ومن المفارقات جوائز هذه السنة انها حجبت عن الرواية مع أن هنالك عشرات الروايات التي صدرت وكانت ذات قيمة ابداعية عالية.

وفي سياق الحديث عن الدولة وجوائزها، فهناك جوائز أخرى تنهال على ثقافة القاهرة من الخارج، من جائزة صدام حسين الى جائزة الملك فيصل أو العويس، واليابطين، وسعاد الصباح دون أن ننسى جائزة نوبل، التي أوقعت المثقف المصري خصوصاً والمثقف العربي عموماً في ماراتون الترجمة الى اللغات الأجنبية، وبترجمات سيئة في معظم الأحيان. أمام هذا المشهد البانورامي من الجوائز، ضحك ابراهيم أصلان وقال: «عاوزين جائزة... يا أخوان» ساخراً مما يجري من لهاث حول هذه الجائزة أو تلك.

هل يتحول المبدع الى صائد جوائز؟ الى الكتابة حسب شروط الجوائز المتفرقة؟ هل يتحول المثقف الى موظف في العلاقات العامة؟ هذا ما يرفضه معظم المثقفين المصريين، لشكهم في مصداقية جوائز الدولة أو جوائز الخارج؛ ويذكر أن واحداً من الذين فازوا باحدى جوائز الدولة وهو فنان تشكيلي، ويعد من كبار موظفي الهيئة العامة، قد حاول تهريب مجموعة من المصاحف والكتب النادرة من دار الكتب تمهيداً لبيعها الى مستشرقين أميركيين مقابل أربعة ملايين دولار، وناقد آخر فاز بجوائز عربية كتب رسالة الى رئيس الجمهورية يشي فيها بالمثقفين وانتماءاتهم.

أما قصور الثقافة التي أنشأتها الدولة فهي تهتم بتنشيط العلاقة مع أدباء الأقاليم وتنشيط المهرجانات المحلية للقصة والشعر، وذلك لربط مثقف الأطراف بالمركز الثقافي في القاهرة، وبهذا الصدد يقول ابراهيم عبدالمجيد: «أثناء أي مهرجان شعري محلي، نحدد لكل شاعر ثلاث دقائق ليلقي قصيدته، ولكن الشاعر لا يكتفي بالوقت المحدد، فيسود الهرج والمرج بين الشاعر والجمهور أو يتعارك الشاعر مع زملائه الذين ينتظرون دورهم ويعدون بالعشرات فنغادر القاعة والعراك ما يزال محتدماً داخل الصالة». ولا يكف أدباء الأقاليم عن الاحتجاج لناحية تغييبهم وتسلط مثقفي القاهرة على الحياة الصحافية والثقافية مذكرين دائماً بأن عبدالناصر والعقاد وطه حسين وغيرهم كانوا من الصعيد!

يصف أحمد الشهاوي «اتحاد كتاب مصر» انه «جثة أسطورية هامدة ترمدت. فهو لا يحتفي إلا بصغار الموهوبين، وهم أتباع الباشا ثروت أباظة، فالاتحاد لا يخدم الابداع ولا المبدعين، حتى في قضايا الحرية والتعبير، لا يعبر سوى عن وجهة نظر الدولة وآرائها. وأبرز مثال على ذلك دوره أثناء خلاف محمد حسنين هيكل مع الدولة بعد كتابه «خريف الغضب» كذلك دوره أثناء معركة يوسف ادريس مع وزير الثقافة السابق عبدالحميد رضوان، حين كتب ادريس مقاله الشهير «أهمية أن نتثقف يا ناس». وفي الحالتين لم يكن هناك موقف مميز لاتحاد الكتاب بل كان مع السلطة في كل شيء».

ثمة هدوء حذر يشوب العلاقة بين المثقف والدولة، أو ما يشبه الهدنة الطويلة مع السلطة، بعد مراحل بدأت من ثقافة ثورة ملتزمة إلى اعتقال لحرية التعبير الأدبي أيام عبدالناصر الى فترة التغييب والتعتيم والنفي والتعذيب في عهد السادات، وتثمر العلاقة الآن في حيز محدود وهامش ديموقراطي يتسع ويضيق حسب الظروف والأحوال. فمن قائمة ممنوعات ومحظورات لأسماء لم تكن تستطيع أن توقع باسمائها، الى حالة ثقافية مفتوحة على المعارك وبالأسماء. وبقدر ما تدل المعارك المتبادلة في عنفها وشتائمها، على حيوية ما وحرية نسبية في الاحتجاج، بقدر ما يبقى الالتزام واضحاً بثقافة الدولة ونصّها الثقافي الرسمي.

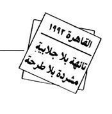
بعد «نوبل» بدأ ماراتون الترجمة

تنقسم المعارضة الثقافية المرتبطة بالمعارضة السياسية الى عدة تيارات، أبرزها التيار اليساري المتمثل بمجلة ثقافية واحدة «أدب ونقد» الدائرة في فلك ثقافة ماركسية مطعّمة بعروبة ناصرية وتقابله ثقافة دينية اسلامية موزعة بين الأصوليين وشيوخ الأزهر، أي ثقافة رجال الدين عموماً، المتمثلة بالفتاوي التي تطارد النص المعارض الساعي الى هتك المحرّمات في الدين أو الجنس أو الفقه. وتبدو المعارضة التقليدية الثقافية أشبه بالمعارضة الرسمية فهي لا تستطيع أن تتجاوز الحدود المرسومة لها. إلا أن المعارضة الحقيقية تبقى في أوساط المثقفين الفرادى غير المرتبطين الذين قد يواجهون وحدهم القتل والنبذ أو الاكتئاب.

والمعارضة عموماً تائهة بين ثقافة اسطورة اشتراكية، وخرافة رجل دين، بين الشعوذة الدينية والوهم اليساري. بين ثقافة الجنة والنار وثقافة مشاعية العالم والسلام الكوني، بين ثقافة العمال والفلاحين، وبين المؤمنات والمؤمنين. وما بينهما ثمة رشقات رصاص من ثقافة الإرهاب: اعتقال بين لحظة وأخرى من زوار فجر على استعداد لأي طارىء سياسي أو ثقافي، لأفراد أو جماعات.

لكل دولة رجال، ولكل رجل ثقافته، في مترو الأنفاق، كان القطار يتوقف عند المحطات التالية، محطة عرابي باشا، محطة سعد زغلول، محطة جمال عبدالناصر، محطة أنور السادات...

لكل محطة اسم زعيم أو قائد أو رئيس، وأثناء عبورنا للمحطات في قطار الثقافة المصرية، نتذكر رجالاً آخرين مع كل زعيم، من محمد عبده الى طه حسين حتى نجيب محفوظ وآخرين، أجيال تنمو، في محطات سياسية ومراحل مصيرية. وأثناء انتظاري للمترو، في محطة حسني مبارك، لمحت فتاة كانت تبكي لأنها رسبت في امتحانات الجامعة، فأي امتحان سوف تجتازه الثقافة المصرية من الآن وحتى عام ٢٠٠٠؟ وهل ينجح المثقف المصري في الخروج من النفق نحو آفاق أخرى؟ مثلما يتم توسيع مترو الأنفاق الآن؟ □



انهم يتسللون عبر الصحراء

■ على الرغم من وجود عدد وافر من المجلات والصحف التي تصدر يومياً وأسبوعياً، إلّا أن الحيز الثقافي المتاح قليل جداً في صفحاتها الثقافية اليومية النادرة، قياساً لأخبار الفنانين والمنوعات الغنائية. ويعتبر أحد العاملين في الصحافة الثقافية: «ان صفحات الثقافة تصدر من قبيل سد الخانة.ومن سياسة التحرير انه إذا جاءهم إعلان مفاجىء لا يفكر المسؤولون بوضع الاعلان إلا في الصفحة الثقافية، فهم ما زالوا ينظرون الى الثقافة على انها من الكماليات».

فالصفحات الثقافية متفاوتة الجودة لأنها خاضعة للسياسة العامة. وهي تتعامل مع رنين الشهرة أو مع قدرتها على تنفيذ خطتها أو مقاومة حسادها. والمحرر الأدبي ليس حراً في أحكامه إن كان في صحف المعارضة أو السلطة لأنه تابع بشكل دائم، ولا يوجد منابر مستقلة خاصة بالمثقفين بحسب رأي الناقد إبراهيم فتحي.

ثمة هجرة واسعة نحو صحافة الاستكتاب، وهي مشكلة من المشاكل التي تواجهها الحياة الابداعية المصرية، خصوصاً لجهة هجرة النقاد، الذين يغادرون من أجل تحصيل الرزق كشاكر عبدالحميد ومحمد بدوي ورمضان بسطاويسي ومجدي توفيق... وغيرهم من النقاد الشباب الذين ساهموا في حركة النقد في السنوات الأخيرة... و«هؤلاء النقاد قد فتحوا مجالاً للاسهام في مناقشة الكتابات الجديدة، بوجه نقاد أنفقوا أكثر من نصف حياتهم في أبحاث أكاديمية تخصصت في مناقشة الكتب الصفراء والمناهج القديمة».

وهذا الكلام للشاعر أحمد الشهاوي الذي أضاف: «هناك نقاد خصصوا جل وقتهم للكتابة عن الأسماء اللامعة، باعتبار أن ذلك سيسوّق مادتهم النقدية في المجلات المصرية والعربية».

إن العلاقة بين المثقف المصري والصحافة العربية ليست كما هي في الظاهر،في حالة تواصل وتبادل آراء،بقدر ما هي حالة استكتاب بالجملة، وثمة معركة خفية بدأت تظهر الى العلن في خلاف المثقفين المصريين مع الصحافة العربية والخليجية تحديداً، وكلام يقال عن مؤامرة على الثقافة والصحافة المصرية فيعتبر د. علي الراعي في حديث الى مجلة «آخر ساعة»: «ان هذه الهجمة الصحافية مقصود منها سحب البساط الاعلامي المقروء والمصور والمطبوع من تحت أقدام مصر والمصيبة اننا نايمين في العسل». وفي مجلة «المصور» يبادر رجاء النقاش الى القول بعنف: «ان في الصحافة العربية الآن حملة على ثقافة مصر وأدبها، ومحاولة واضحة، لإنزال مصر من مكانتها الأدبية والفكرية والفنية، وتحرير الثقافة العربية كلياً مما يسمى بالآثار السلبية للثقافة المصرية».

لكن الناقد إبراهيم فتحي أثناء لقائي معه قال: «ان المثقفين المصريين يحبون المبدعين العرب ويبحثون عن أعمالهم، لكن هذا خاضع للعلاقات المتبدلة والمتغيرة بين الأنظمة. والثقافة المصرية لا يمكن ان تكون شوفينية، فالعرب هم الذين أسسوا المسرح والصحافة المصرية. والتلامذة العرب عاشوا في القاهرة، والأساتذة المصريون علّموا في الجامعات العربية... إن أية غربة هي قاتلة للثقافة، ونحن نتعلم من الفرنسيين والانكليز فكيف نكون شوفينيين مع العرب بالذات؟».

في الفندق، كانت الموسيقى الكلاسيكية نفسها تتكرر وأيضاً مشهد السياح الذين يتمطّون في صباح متأخر، ويتنقلون في الردهة بين المقاعد الجلدية، وكنت أشم عطوراً مخلوطة برائحة الخمور الثقيلة... ابتسامات بالجملة من الموظفين والمستخدمين... وتذكرت منذ خمس سنوات أنني رأيت السياح الاسرائيليين يتجولون بوقاحة وصلافة، أما الآن فلم أصادف أحداً منهم، وأخبرني سعيد الكفراوي: «انهم أصبحو يعرّفون عن أنفسهم على أنهم أمريكان أو ألمان... ولا ينزلون إلا في فندق واحد في مدينة نصر. ويأتون جماعات منظمة بدون إشارات تدل على هوياتهم»... فطرحت السؤال التالي على نفسي: هل يفكر الاسرائيليون بالتغلغل في الثقافة المصرية حيث انهم بدأوا يقولون: «ان الاهرامات والحضارة الفرعونية هي جزء من تاريخهم»... وكونهم خرجوا في سبيهم من بوابة الصحراء فهل هم في طريق العودة عبر الصحراء أيضاً! □

شباب في خريف المقاهي

■ يقع مقهى زهرة البستان بين تقاطع زاروبين ضيقين، حيث تصطف الكراسي بالطول على الجانبين بين شركة سفريات متواضعة، وكاراج ميكانيك للسيارات. ويتوافد على هذا المقهى الشعبي أكثر المثقفين الشباب من شعراء وقاصين، وأصحاب خدمات صحافية، وكتاب أغانٍ شعبية ورسامين، ومعظم الذين يطلق عليهم اسم الحرافيش. في هذا المقهى تأنس الى فتحي عبدالله رغم عبثيته، وفتحي الشاعر بلا ديوان، والذي يلم التبرعات من الأصدقاء لطبع مجموعته قال لي: «قضيت خمس سنوات في القرية أقرأ وأكتب، غادرت الى السعودية لأعمل فرجعت بعد تسعة أشهر، ثم رحلت الى العراق، وعدت الى القاهرة لأتسكع وأتشرد في هذه المدينة أبحث عن صوتي الشعري وعن عمل تاركاً في القرية زوجتي وأولادي يقطنون في بيت أهلي». ثمة طمأنينة يمنحك اياها فتحي لكثرة ما يقرأ وما يعرف من التجارب الشعرية المختلفة والمتنوعة في العالم العربي، لكن معظم قراءاته تجري في المقهى، عندما يترك قدميه تقودانه دائماً الى نفس الشيشة فيغيّر الأحجار ويسحب أنفاساً عميقة.

وسط الغبار والشحم والأتربة يبدو مقهى زهرة البستان حيّاً بشبان يبتسمون بقسوة حاملين تحت آباطهم دفاتر وكراسات يقرأونها لبعضهم البعض، مع ذلك تتحول الجلسة الى حلقة نميمة لا تنتهي، كان الحر شديداً وكنت أتقيه بجلوسي في المقهى بين بناءين بحيطان سوداء، أصغي الى انفعالات فتحي، وكان ثمة ماء يزرب من قسطل بقطرات ساخنة، وحين انتهت الشيشة وانتهى الحديث، تكوّم بيني وبين فتحي نقعة ماء وخلاف في وجهتي النظر حول القصيدة.

في المقهى نفسه، التقيت بعلاء خالد الآتي من الاسكندرية وهو من جماعة الأربعائيين فبادرني قائلاً: «لا أطيق القاهرة بثقافتها ومقاهيها ونميمتها، أعيش في شبه عزلة في الاسكندرية». كان الشاعر علاء خالد يسألني عن بيروت وبقية العواصم، وأنا أسأله عن ثقافة القاهرة، فلم نصل الى قاسم مشترك في الأسئلة والأجوبة، ويبدو علاء خالد بعد مجموعتين من الشعر أكثر تأملاً، وأكثر قلقاً، يتنقل من طاولة إلى أخرى، بملامح سوداوية، كأنه يريد القفز الى المجهول، فبين الاسكندرية والقاهرة، ثمة تجارب واختلافات، في البحث عن أصوات، ومنابر، لشباب يحاولون الاجتماع في السهرة، لكنهم يتفرقون في النص.

حين تدخل الى مؤسسة الأهرام تشعر بالفخامة لبصمات تركها محمد حسنين هيكل، الذي حول هذه الجريدة الى مؤسسة عملاقة، مانحاً امتيازات خاصة للمحررين، بالاضافة الى الهندسة الداخلية من جداريات ولوحات ومرايا كأنك في دولة صحافية. في مطعم الأهرام التقيت بأحمد الشهاوي أكثر من مرة، وكان لا يخرج الى المقهى إلا مرة واحدة في الأسبوع، في احدى اللقاءات أسرّ لي: «أتجنب الخروج حتى لا أحتك بأي مثقف مهما كانت علاقتي به لأن رصاص البذاءة يصيبني». ويحافظ الشهاوي على هدوئه، وعلى إرث من مجموعاته الشعرية، ويصر على الأناقة في الشعر وفي المظهر، ويقبل على الحياة بشراهة: «أعاني من فيروس في الكبد وخطي التلفوني موصول الى المستشفى، لتأخذني سيارة اسعاف في لحظة طوارىء، من نوبة اغماء مفاجئة». والصوفية عند الشهاوي مرافقة لتجاربه مع الموت، ولكن من جهة أخرى يعتبر أنه لم يتمتع برخاء متواضع إلا بعد تجربة مريرة من الجوع: «تركتني الخطيبة بسبب الشقة، أما الآن فلدي شقة واسعة، وحساب مصرفي، لكني في انتظار رحمة الله بين ساعة وأخرى». والشهاوي صحافي، حيوي، تشغله مهمة البحث عن أفق، انفعالي، يحاول أن يقدم معظم الأصوات الشابة المجايلة له دون



تأخير أو استثناء.

في مقهى انديانا في الدقي، التقيت بهشام قشطة. التائه بين كتابة القصيدة و«الكتابة الأخرى» وهي المجلة التي يشرف على تحريرها وطبعها، والتي جاءت رداً على مفهوم الصفوة والحرافيش الذي أطلقه أحمد عبدالمعطي حجازي في مجلة «ابداع». لكن هشام لم يعد يؤمن بما يكتب رافضاً قصيدته، يحاول أن يكون محركاً ثقافياً لجيل جديد عبر منبر «الكتابة الأخرى» مستديناً من والده تكاليف الطباعة. ومقهى انديانا كان ملتقى للتجمعات الثقافية والسياسية. وقد حدثني هشام عن ذكريات المقهى قائلاً: «صدام حسين كان يجلس يومياً هنا عندما كان هارباً في أوائل الستينات، وفي السبعينات كان المقهى مكان تجمع معظم الشعراء، لكنه الآن تحول الى مكان للعشاق، يشربون عصير المانجا ويأكلون الآيس كريم». وازداد انفعال هشام في مكان آخر، في لقاء آخر، في ال «بوب لا غريون» وذلك بوجود صديقته الأميركية ايف، الباحثة عن تاريخي مصر والسودان، فحدثنا عن الفراعنة والاسلام، وصراع المثقف والسلطة، بانفعال من يتناول قضايا خاسرة. ويبقى هشام وهو يحمل رزمة أعداد، ويجمع القصائد والمقالات، ويتابع الطباعة ويوزع بيديه أعداد المجلة بدون شعارات فضفاضة، نموذجاً لجيل تسعيني يحاول بصدق.

في مقهى الماوردي في الشيراتون تحاورت مع إبراهيم عيسى بعد لقاء صباحي سريع في مكتبه في «روز اليوسف» فتكلمنا باختصار عن الجرأة والمشاكسات الصحافية. وكيف منعوا وصادروا روايته «العراة» التي بقيت في المستودعات، لكن إبراهيم هو الوحيد الذي قال صراحة: «أنا لست ابن هزيمة الـ ١٩٦٧» كأنه يفتح مسرباً آخر للحديث ويعبر بهذه الجملة الى ضفة أخرى، متابعاً: «طموحي، الكتابة للنخبة، ولا وجود للقارىء الشعبي، لا أؤمن بالانتشار والتوزيع، ويجب علينا أن نتطرق الى كل الموضوعات بلا خجل ودون انتظار القراء».

إبراهيم داوود، لا يتصل بأهل الثقافة، رغم انه عمل كسكرتير تحرير لمجلة «أدب ونقد» ما زال يكتب الشعر، لكنه ابتعد عن الوسط الثقافي نحو الوسط السينمائي. وقد حدثني عن تجربته في كتابة أغاني فيلم أختناتون قائلاً: «لقد قالوا عني انني أصبحت من بتوع السيما... والسينما في رأي الشعراء هي مجرد هزة خصر، ومجموعة من التقنيات، السينما والمثقفون في حالة خلاف ورغم أن السينما استعملت العديد من الأعمال الروائية ومشهديتها، فما زال هناك نظرة دونية لهذا الفن في أذهان معظم مثقفينا». وإبراهيم بذقنه الخفيفة، يكتب في حجرة خاصة به، معتزلاً وعاكفاً على كتابة ما، وانفعاله يقترب من حدود البحث عن تجربة مختلفة في حياته ونصه.

حين دخلت نادي الأتلييه للمرة الأولى، فوجئت بامرأة تضحك بشكل هستيري مع شلة، يشربون القهوة ويتكلمون بصوت عالٍ، وعلمت انها مناضلة سابقة وخريجة سجون، بحثت طويلاً عن العدالة الاجتماعية، والآن أصبحت أكثر عدوانية.

الأتلييه في ذاكرة المثقفين كان أكثر هدوءاً وارستقراطية تشغله جماعات ثقافية تشكيلية من أبرزها رمسيس يونان وانجي أفلاطون. ولكن مع التحولات والانقلابات تحول المكان الى تجمعات ثقافية تتناقش وتتشاكس، وتجتمع كل ثلاثاء في ندوة اسبوعية عن رواية أو قصة أو مجموعة شعرية.

محمد متولي، ابن الثانية والعشرين، يكتب القصيدة بشغف ولكن حبه الأكبر هو للسينما ويطمح الى أن يصبح مخرجاً سينمائياً، ويتطلع بقوة الى ذاكرة السينما العالمية. محمد متولي شاعر شرس في الكتابة، هادىء في الحوار. خافت الصوت، قوي النبرة في القصيدة وقد حدثني هامساً تقريباً: «أبحث عن شكل جديد، وأتحاشى المثقفين، وصداقاتي قليلة»، وفي طريقنا الى الحسين وخان الخليلي والسكرية وقصر الشوق كانت أفواج السياح تروح وتجيء في أرض نجيب محفوظ، قلت له: «هل أصبح أحمد عبدالجواد سمسار شقق...؟ وهل هجر كمال آراءه الفلسفية وذهب الى صحافة الخليج؟». فتشت عن «ناس» الثلاثية برفقة محمد متولي، فلم أهتدِ إلا إلى مطعم كتب عليه «مطعم نجيب محفوظ» وباللغتين العربية والأجنبية مع بطاقات «الأميركان اكسبريس». □

صيادون وناس وسمك



■ فوق الكوبري (الجسر) كنت أتفرج على السمك الصغير الذي كان يتجمع حول قطعة خبز ملمومة على صنارة أحد الفتيان، وعلى يميني كانت محطة باص لركاب يتهافتون ويركضون نحو مدخل الأوتوبيس. يركضون نحو لقمة عيش، والسمك ما زال يتهافت حول الطعم. ناس وسمك وصيادون كثر في «نيل» من الماء والبشر...

كنت أودع الشارع الممتلىء بالوجوه الحزينة، من ماسح الأحذية الى بائعة العرانيس وبائع الصحف المسائية، وسمسار الشقق والمتسول، والعشاق المتلاصقين فوق الكباري مديرين ظهورهم للمارة والسيارات والسياح.

القاهرة مدينة في مليون مشهد، فأبصروها... حتى لو أصبحت نفرتيتي قاعة حفلات، أو خوفو محلاً للحلويات، وأبو الهول دكاناً للطعمية. أو تحول أخناتون الى ملهى. كان عليّ أن أقول لأهل مصر وداعاً.

وداعاً للذين لا يتوقفون عن الشجار بالمطاوي في زقّة الشوارع ولا الشتائم على صفحات الجرائد.

لطرائف وغضب سائقي التاكسي عن الزحمة واللحمة.

للنائمين في المراكب وتحت الكباري، للنساء يغسلن ويتحممن في النهر.

للمدلوقين من القطارات والباصات من قبلي وبحري.

للناس الذين تلتقطهم كاميرات السياح وهم يصطفون في الطوابير.

للشرطي النعسان تحت الشجرة، والشجرة دائخة من الغبار.

للعجوز الـذي يصـلي بين الدفلى، ومصحفه معلق على شجرة وخلفه عائلة من الملاءات حول صرة غداء.

للوجوه المغسولة بضوء النيون من كوكاكولا وكوداك في ميدان التحرير.

للباحثين عن لقمة الخبز في صحارى العرب وثلوج الغرب.

لكل الشباب الذين دُفن آباؤهم مع جزماتهم في صحراء سيناء.

لقداس الأحد الأنيق في الكنائس المنزوية.

لصلاة الجمعة في الشوارع والأحذية المصفوفة بترتيب.

للمجنون الذي وقف في وجهي في الشارع وقال: «أعمل ايه... أقول ايه... الناس كفرت».

للنادل الذي يدق الباب كل خمس دقائق: «أية خدمة يا باشا... أية خدمة يا بيه».

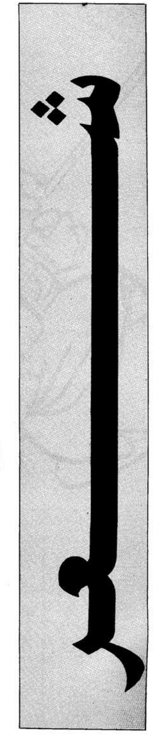
للزمامير والدفوف لعروسين على كورنيش النيل والنقوط المتطايرة من الصعيدي.

لمقابر الأهل، وأهل المقابر.

وداعاً لكل هؤلاء من ناس وأصحاب وأصدقاء.

وتبقى مصر:

يمّه يا بهية يا أم طرحة وجلابية
الـزمـن شـاب وانـت شابـة
هـو رايـح وانـت جـايـة □



موجــة في بحر الحداثة المصرية

■ يتفرق النص الشعري المصري الحديث الى جماعات وأجيال تتوارث القصيدة لكونها مقدّساً لغوياً. ولا تفترق تلك التجارب عن مثيلاتها في الشعر العربي الحديث، ولكن ما زالت القاهرة تطرح تلك الأسئلة البديهية، والشعارات القديمة، عن الفرق بين الشعر والنثر، الأصالة والحداثة، وتنظيرات مختلفة وكأن مجلة «شعر» ما زالت قيد الصدور، بأوهام بداياتها، وبأسئلتها المراهقة، وأجوبتها الحاسمة (من تثوير وتفجير اللغة، الى كسر السائد، والانقطاع أو التواصل مع الأرث). رغم المحاولات الجدية للقصيدة المصرية الحديثة المغيّبة عن خارطة الشعر العربي الحديث، عبر تجارب عميقة مع عبدالصبور ودنقل وحجازي وغيرهم، وهؤلاء كانوا وما زالوا حاضرين بنسب مختلفة في قائمة شعراء الحداثة أو غيرها من القوائم التي أضافت وتابعت بحثها عن صوت جديد.



في القاهرة ما زالت المعركة محتدمة بين الأجيال، ولكل جيل أوهامه ونصه . . . ويختلفون مع بعضهم رغم تشابه تجارب البعض. فشعراء الستينات من محمد عفيفي مطر الى محمد إبراهيم أبو سنة، وفاروق شوشة وفاروق جويدة وأحمد سويلم ووفاء وجدي، رغم اختلافهم في النظر الى القصيدة ونهجها فانهم في معركة مع شعراء السبعينات مثل محمد سليمان وعبدالمنعم رمضان ورفعت سلام وأحمد طه وحلمي سالم وحسن طلب وأحمد ريان وعبدالمقصود عبدالكريم، وغيرهم.

جيل السبعينات يعتبر أن كتابة جيل الستينات كلاسيكية. ولم تستطع الخروج عن المألوف، بينما يصر جيل الستينات على اعتبار تجربة جيل السبعينات، أدونيسية، حتى ان فاروق شوشة صرّح في جريدة الوفد: «ان جيل السبعينات هم صراصير يجب أن يداسوا بالأحذية».

ولا ندّعي في هذه المقالة السريعة اننا نستطيع أن نلقي نظرة نقدية عميقة على الشعر المصري الحديث، وهو الذي يحتاج الى دراسة متخصصة، بقدر ما اننا ننقل بعض الاشارات مما سمعناه في القاهرة عن تجارب الشعر الحديث والحداثويين. فإذا كان جيل الستينات والسبعينات يقول: «نحن بلا آباء» فإن جيل التسعينات يصرخ: «انهم بلا آباء ولا أجداد». ويبدو أن النص الشعري مع جيل التسعينات يقف على مفترق طرق فهو صاحب نكهة مختلفة، وذوقية مميزة، مع مناخات متعددة في القول والاضافة الشعرية، بأقل ما يمكن من التنظير. ولكن البعض يعتبرهم من الحرافيش وانهم لا يعرفون لا العروض ولا البحور ويكتبون قصائد مترجمة وهم أصداء لتجارب ثقافية مختلفة.

نترك الأجيال في معاركها، ونقدم عبر صفحات «الناقد» نماذج لتجارب شعرية من جيل التسعينات في القصيدة المصرية، في محاولة للإضاءة على تجارب قيد الاختمار ومفتوحة على المستقبل. □

القصائد خاصة بـ «الناقد» وتنشر للمرة الأولى.

محمد متولي
مواليد ١٩٧٠

صدره للغرباء

■ أفاق فجأة فوجد نفسه على شاطىء خاوٍ
وحيداً وعارياً Just like that!
إذا صادفْتَ كلباً
يَنهرُك عن التأمُّل
أو قوقعةً ترفع حاجبها تعجُّباً
من امتناعك من استنشاق الهواء
فاعلم ـ حين يستخرج الكلبُ القواقع
من الرمال
انك صرت صديقاً للبحر
وأنه لن يُفْشِي أسرارك للغُرباء
هؤلاء الذين يسهرون تحت شرفتك
بآلاتٍ للتنصت
خبأوها في أنوفهم وفي عشب الحديقة
آملين في سَبْقٍ صحفي
عن حقيبة سفرك الممزقة
أو قصيدة كتَبْتَها في امرأةٍ
انتحرَتْ فور سماعها
بهذه القسوة
يتسللون إلى مخدعك
ممزقين الوسائد
بحُجَّة انها لا تساعدك على استحضار
كوابيس قاموا ببطولتها
وبينما تكتب الآن علَّك تُخَفِّفُ من
وطأتهم
يرسلون إليك مراهِقَةً تدعوك
لتفجير أعضائها
هل ستتركها للبحر،
وهل وثقت فيه إلى حدٍّ يجعلك توقنُ
أنَّ موجه أبيض فقط لأنك تصُبُّ
فيه حزنك
وأنك طفله المدلل؟
إن كان كذلك
فلماذا يفتح صدره للغرباء،
ولماذا السفن مضيئة وعاجزة عن الحراك،
ولماذا عليك ان تجلس في صمتٍ
لتسجِّل فوضى أطفالٍ
يبحثون عن الكمثري في غير أوانها
أو تراقب كلباً
يستخرج القواقع من الرمال؟

عصفور على بوفيه المحطة

عادةً ما يتحدثُ غريبان
في محطة القطار
عن الطقس المتقلب
فيذكرُ الرجلُ الغيمة التي عرقلت العربات
ذات مرة، واضطر الركاب للنزول
لزحزحتها
(يتذكر جيداً امرأة رفضت النزول
واحتمت بدورة المياه)
وتشير المرأة إلى قطيع الماعز الذي سد عليهم الطريق، مما دفعها إلى الصياح من النافذة في وجه الراعي الأصم.
(تتذكر جيداً المحصل الذي ـ أثناء ذلك ـ كان يرمق فخذيها بإعجاب).
وعادة حين يكنس النادل الجمل المبتورة
مُكوماً الفواصل والهمزات في مطفأة السجائر
ينصرفان
ليتسع بينهما ـ في خلفية المشهد ـ
شلالٌ يجرف عصفوراً
لن يتذكر موتَه أحد.

ينتظر مكالمة هامة

جيئة وذهاباً
في الشرفة المتربة لمنزلٍ متصدع
عجوز تسير ضاحكةً
بالتليفون المعطَّل منذ سنين
تحادث صديقاً قديماً
كانت قد علمت مؤخراً
بنبأ وفاته. □

أحمد الشهاوي
مواليد ١٩٦١

حديث الغريب

■ قُم الليلَ كُلَّهُ
فالوردُ أضحى وقتَكَ

قِس النارَ والطِّينَ
وَلا تَقِس أحداً عليها

هي عاليةٌ.

ودليلُ وَقْتِكَ شَمسُهَا
وَنَخيلُها عرشٌ تَساقطَ في القلوبْ

يدُ اللهِ فوقَكَ
ويدُ الحبيبةِ/فَوْقَ بَحرِك.

نمْ على جَسدِ الهواءِ
واقرأْ رَمْلَهَا.
هي قُطبُ وَقْتِ مَحبتِكْ
وزمانُها يَمشِي
يجلو النفوسَ بنورِها.

صِلْ القَلْبَ بالماءِ
وَصَلْ
في سماءِ سمائِها.

اللّهُ يسألُكَ المحبةَ
والمحبةُ
جسرُ نارِكَ للجحيم.

طريقُ عُمرِكَ مِثلُ خارطةٍ تَنَاءَتْ
والنائيُ قُربٌ قَاتِلٌ
يُذهِبُ الشمسَ في النيلِ
ويُدخِلُ الجانَ في دمِكَ السماويِّ.

أحرقْ مراكبَ شمسِكَ الأولى
وَصِلْ مَاءً بماءٍ
فموتُكَ يا غريبُ شهادةٌ
وأرضُكَ تَستقرُّ على يديها.

آتيناكَ حُكماً وعلماً
فابْصِرْ نورَها ببصيرتِكْ.

وادخلْ جنةً هي عالية
واكتُمْ كرامةَ طَلْعِها.

إضرب البحرِ وامشِ في مسالكِهِ
فالنُّورُ قُدَّامٌ
والنارُ تحرقُ قلبَ أيامِكْ
وبُراقُ وقتِكَ مُسرجٌ
فطِرْ لي
وَخُذْ ليلَ الديارِ إلى سمايْ
واحرقْ بلاداً.
هي كلمةٌ سنقولُها:
الموتُ دنياكَ التي جَاءَتْ
وَتأتي. □

أحمد يماني
مواليد ١٩٧٠

منشورات الأصدقاء



■ ثلاثة غرقى في أعمار مختلفة سيلتقون عند أول سد لحجز الهواء وباتفاق غير معلن سيتقدم الكبير كقائد محنك يستطيع ان يضع تحصينات كافية لمنع الأسماك من تصيد أفخاذه والتي طالما



لفها بأفخاذ حنونة لفتاة تصنع الآن لفافات بيضاء لتحتضن بلله تماماً كما تساقط العرق عند أول قبلة اختلساها وراء المنزل.

وربما بعد ان تلفه بقماشها الطويل ستسقط نقطة أخرى من العرق كتأكيد على أنَّ ما يسيل بينهما دائماً محض ماء يمكنهما وضعه في حقيبة الذكريات مع بقية الأصدقاء والذين ربما لصغر سنهم لن يجدوا لفافات بيضاء تظلل أفخاذهم تلك الموجودة عند أول سد لحجز الهواء.



هنا في الممر الضيق بجانب أطفال بلهاء أصرت الـمُدرِّسة على جمعهم في مستنقع واسع - ربما ليلهوا بالحشرات - كل واحد سيتمكن من الشخير عالياً وبصق المضغ الصغيرة من دروس الأمس.

طيبين جداً يتقدمون بثبات لتعرية أردافهم أمام الناظر ذي العينين الجاحظتين والبشرة المخرمة حيث يمكن ان يعيدوا غسل الفتحات الشرجية بماء جديد.

هنا في الممر الضيق كنت أتقدم كواحدٍ ممن يمرون سريعاً لقراءة دروس جديدة استطاع المعلم إقناعي بقدرتي الفذة في إلقائها.

هنا في الممر الضيق السنوات العشر مرت كمعمل مغلق بلا أطفال بلهاء وبلا دروس جديدة وربما بلا مؤخرات يراها المعلمون الكبار هنا في الممر الضيق.



قبل ان يخرج من الغرفة تقريباً سيطمئن على الثقب الذي فتحه في حائط الجارة وكيف خرج الأطفال خلاله يجرون عرباتهم الصفيح ويمنعون الكلاب من مضاجعة الظهيرة غير مهتمين في الأساس بمقاعد الهواء التي يتسلمها أطفال آخرون وضعوا فتيلة لإشعال المبنى الكبير وإخراج وجوههم من رماده ولأن الغرفة مسكونة بالحشرات والثعابين و«كليلة ودمنة» فقد رأى ان من الطبيعي - قبل ان يخرج - ان يضع الله في ركن نظيف وإمعاناً قرر ان يضع ناموسية وسياجاً من الحرير حتى لا تزعجه الحشرات والثعابين فهكذا تصور دائماً ان الله يجب ان يكون نظيفاً وناصعاً كجده لكنه رأى كذلك ان جده بجلبابه الصوف أكثر أناقة من الله الذي رآه يلبس بذلة كاكي وباساً ولأن الغرفة هكذا فقرر قرر ان لا يحتاج لآخر سوى جسده الفارغ من الطفولة وخيال الإستمناء.

منشورات الجدّة



تموتين أمامي كثيراً أنفك كان أفطس وكانت يدك قصيرة لدرجة انك بالكاد كنت تطالين فتحة البول أو بالكاد أيضاً تمسحين جسدي بالخل والليمون لأن الانفلونزا أحرقت ظهري، ولأنني غبيٌ دائماً وعادة ما آتي متأخراً كنت أتصور انك تقرصينني وان علبة الدواء أهم من عروقك النافرة.

تموتين أمامي كثيراً وظهري أكبر من حركة يديك فيدي أنا في هذه المرة فقط ستمسح جسدك لا بالخل والليمون ولكن بماء الورد وستطال بيداح فتحة بولك وستعطيك الإشارة لأن تهزمي الأنفلونزا نهائياً وان تهزمي معها كل طفولتي الملقاة بجوارك في قبور العائلة.



هل انتهيت الآن من تقصير جلبابك؟ لتظهر ساقك النحيلة كما أردت تماماً وأنت تضحكين بغنج واضح حين أمسك ابن أخيك بثديك لا لمعابثتك كما تظنين ولكن لينظر من الشرفة كانت المرة الأولى وكنت تظنين ان جدي سيأتي في المساء لذا مازلت تضعين الحناء على رأسك وتنظفين كعبيك بطوبة حمراء هو قادم إذن انتظري ان يطير سرير نومك إلى حيث يوجد وابدئي من الآن في تقصير جلبابك.



الدودُ الذي رأيته بعينيك يتسلل من عضوك قبل ان تدخلي بيتك الجديد كنت تعرفينه وربما قرأت كتباً كثيرة في كيفية ترويضه ومن أين يبدأ في التهام الجسد من الأصابع أم من الرأس وأظنك ستخبرينه ان يبدأ من أصابع القدم لأن مشط العاج الذي تضعينه في ثنيات ثوبك ستهذبين به شعرك فلا يصح ان تلقي زوجك بشعر مبلول وغير مفروق من المنتصف وحينما ينتهي زوجك من النظر إلى عينيك ومسح رأسك بيديه الكبيرتين، أظنه سيتوقف لأن خمسة أيام كانت تكفي قبل ان ينفصل الشعر المهذب عن رأسك الصغير. □



علاء خالد
مواليد ١٩٦٠

حلم يسقط من الطابق الرابع

■ وفي المشرحة،
لقيته مرة أخرى.
الجسدُ كلُه في جغرافية مستقيمة.
الأعضاء ضد تاريخها.
والعينُ لايلافٍ غامض على غرف سوداء.
واليدان تحفظان الأحلامَ المهتّكة من السقوط من فوق
منضدة التغسيل.
والقلبُ يتراجعُ في حجمه ومحبته وفي سوائله.

الشِعْر وحده كان حياً ومع التاريخ؛
العضو الوحيد المتعامد مع الأرض وضد جغرافية الأفق.

لم تكن رصاصةً هي التي ثقبت اليأسَ،
لأقولَ لها إرجعي من حيث ولدتِ، إلى غابة المعادن
مع أخواتك الحديد والقصدير والنحاس.

لو لم تكن سكيناً، شطرت الدمَ إلى نصفين،
لكنتُ أغريتها بدماءٍ أكثر قسوةً.

لم يكن كرسياً كهربائياً هو الذي صهر الأعصابَ وفصلها
عن كل
أنظمة الحس،
لكنتُ ساومته بكرسي خشبي تجلسُ عليه دهوراً،
ولا تتنكرُ لكَ أعصابُك.

لكنه موتٌ كاملٌ، لم يترك باباً خلفياً في الروح.
ولكنه كرسي كهربائي لا يرمِّدُ الأعصاب وحدها، وإنما كلَّ
الأماكن التي عاشت في الجسد وتربَّتْ على ظلاله.

ولكنها سكين لم تأت من الخارج لتفصلَ بين المادة والروح،
وإنما سكين قديمة، كانت تنمو مع الجسد ومنذ ولادته.

ولكنها رصاصة بطول الجسد.

لو حضرتُ قبلَ سقوطِكَ من الشرفة،
لقلتُ للحركة ان تحررَ نفسها من عبودية الأرض،
وتتكرر في منهج عكسي؛
كي تعيدكَ، مرة أخرى، إلى الشرفة، يائساً، تهشمُ
الزجاجَ كما تعودتَ،
وتدور في الغرفةِ كثعلب مطعون في دهائه،
وتنهارُ مثل كل ليلةٍ، على ورق السرير بدلاً من الأسفلت.

لو حضرتُ قبل ان يفرغ القلبُ من الحنان،
لقلتُ للدم ان يعود كما كان؛ طفلاً، يتسلق الأوردة
وعرائشَ البلازما.

لقلتُ للكرسي الخشبي الذي انتحر معكَ: كن رجلاً،
ولا تحوِّ الآن إلى أبيك الشارع.
لو حضرتُ قبل ان تُعريكَ المصابيح وأعينُ المارة،
لقلتُ للضوء: عُدْ إلى النهار، واترك لنا الليلَ كغطاء بدائي
لموتنا العاري من الآخر.
ولسحبتُ جثتَكَ إلى إضاءة أقل.

ولقلتُ للطابق الرابع أن يهبَ نفسه للطابق الثالث.
كي تهبطَ إلى الطفولة على «دفعات»، وفيها تخرجُ الكلابُ
الميتة من رأسِكَ تباعاً، وتخرجُ الأعصاب المحترقة،
وخربشات الجدران القديمة، وتحبُ الحياة.

لقلتُ للجاذبية كوني ضدَّه
وارفعيه لأعلى؛
كأنبياء منبوذين من الشرفات.

ولأن موتك كاملٌ؛
كان الله حليفَك
وضدَّ محبتي لَكَ. □

مهاب نصر
مواليد ١٩٦٢

مداعبة الظلّ

■مرة أخرى
ترمي الاسكندرية بنطالي بحجر كبير
شكراً
فالسكون والحركة كلاهما
وسط غرفة مضاءة تماماً
وثم زهرة معلقة
بلا صخب في الضفاف
وأنت يا كاتم الأسرار
بينما تقلّب أوراقك
متجاهلاً صلصلة الأجساد العارية تحت قدميك
تضغط الزهرة أناملك بقوّة
كأنها تستعجل الرائحة .
. . السكون والحركة .
حصانا العربة الممضوغان
والمنفيان إلى قشرة الدماغ
حينما تسّاقط حبّات رقيقة على وجنتيك .

قلت وأنا أسقط من النافذة:
كان الماء دافقاً
وباتجاه المستقبل
قلت: الهواء . . الهواء أيضاً
كنادل دمث خفيف الرّوح
يعرج قليلاً بقدمه اليسرى
حيث الزوجة والأبناء
وعلى الطاولة رأس صديقنا
لا شيءَ على الطاولةِ اطلاقاً
صَدِّقني يا سيبيس
نحنُ جيشُ خلاص آخرُ
فلولُ صبوات تخلّعت أبوابها
دمعةٌ مهجورةٌ
في الدّرجِ الخلفيّ
آهٍ يا لصَّ حياةٍ
يعيش بكلية واحدة

دَعْ خرابك يستلق بين ذراعي بلا انقطاع
صَدِّقني
وأنا أسقطُ من النافذة
كحمار طليعيّ
وبعنايةٍ شديدة يا سيبيس
أطبقتُ شفتيّ لأحبسكَ
قلتُ: يا ملاكي . . . لم يعد جسدكَ مِلْكاً لأحد .

لأن الله ونقيضه متواجهان على حجري
وآخذانِ في الشّجار
تحت بابِ الحضارات المسقوف
راحَ أطفال يقرصون الية الشجرة الصلعاء
بلا عاطفة تقريباً
قلت: أنت إذن هارب من المدينة
والآن أشر عليَّ يا سيبيس:
«في انتظارك طالت أذناي، وانحنى ظهري
والنجوم التي كنت أحملها يومياً إلى مكان الحفر
أحدثت فراغاً في صمتي
التصقت أمعائي بك أكثر».
ما معنى هذا يا سيبيس
«ان أصبح أعمى
بأن أثبت هكذا عيني على الأشياء».
لا . . لا . . دعني أشرح لك
تذكر، حينما انحنت
لتضغط بقبلتها في المكان نفسه
الذي حدّدته بالأمس
سقط شعرها المستعار في كفّي
فقط . . لماذا أنا خجلت
الحب؟
إذن . . عبر القنوات السمعية
الكعوب الثقيلة للراديكالية
بدءاً من الراعي «جان مسلييه»
ونهاية بـ . . . . .
ـ اعترف
يدان معقودتان خلف الظهر
خطوة هنا، وخطوة هناك
وألم في اللثة لا ينقطع
ـ اعترف



بحيرة ممسوكة بأطراف الأصابع
لا . . لا . . دعني أشرح لك
حين ينزلق الحب إلى نعاسك
أيضاً يضيء الوجه
إن القفازات النبيلة
التي أشارت بحفر الميناء
وانتشلت أمل العالم
. . ولكن
هب أنها محصّنة
كيامة في رأسك
وأنت هكذا تدور باحثاً عن الآلة الحادّة
يا أخي سيبيس
ثم رمل ناعم
يلامس العصب . . ويهبط . . هناك
أسفل الفراش
حيازيم مثلومة
وجماجم لا قيمة لها
. . أنت كذلك
تئن تحت سياط رؤسائك
ما تحتاجه
بلاغة غريق يقف أمام الميكروفون
ـ ابتسم يا غريق
ـ الأسماك . . أين الأسماك يا غريق؟
ـ غريق بلا أسماك؟
ـ فظ
ـ متوحّش .

. . يا أخي سيبيس
وبلا أسماك
أنا ضوء الشجرة الذي يكرر عزلتك
ذراع على رقيم
وفي نهايتها . . شفة لم تكتمل
هكذا، وبلا أسماك يا سيبيس
بلا أسماك .
. . . . □

أسامة الديناصوري
مواليد ١٩٦٠

أوراق من سيرة الجهم

والآن . .
يسقط الجهم متراكماً في ظل الحوائط .
ورقتُه الصلدة
كانت قد أخذت تتصدع في الآونة الأخيرة
ثم تقشّرت أخيراً
لافظةً قبضةً من هلام الرغبة
والمشاعر الغُفل .

●

«أمس .
ماءت قطةُ الجيران
فازدردتُ مجساتي سريعاً
وانكمشتُ داخلي» .

●



يسيرُ الجهمُ فرداً بين أقرانه
فجأةً
يتركهم قوساً مشدوداً
وينطلقُ كالسهم الغامض
يتسلقُ حائط العزلة
يبصرُ المرأة عارية . .
فيبكي .

●



كالجرذان
يستطيع الحدس بالزلزال
لكنه . . لا يفر منه .

«باب الجيم، فصل الهاء والميم»

له ما للغابة من وحشة
وما للبحر من غموض
وجهه . .
لم يستطع أحد وصف ملامحه بدقة
وعيناه . .
يقال الضوء ينكسر دونها رهقاً .

لا يندهش لشيء قط
فلقد عاش حياته قبل ذلك.

●

يستطيع الجهم ان يجلس القرفصاء
لأحقاب طويلة
مصوباً حدقتيه للبعيد . . . الذي لا يراه سواه.

وفي المكان الذي لا يخمن الحاذق. . .
أنه يحدّق فيه:
يشتعل قشُ الشهوة
فينتصب الفحل الهائج عارياً
يعبرُ النيران بتؤدة
يسبقه خُوارُه الصاعق
فتلزم الأفاعي جحورها
وتُحجم النسورُ في أوكارها عن اللهاث.

وآن فراغه من أداء طقسه الإلهي
يتجلى وجهُهُ الرائق
من خلل البخار والدمع.
مخلفاً من ورائه النار الشاهقة. .
أكثر اشتعالاً.

●

أتذكر الآن
لحظة ان نفض الله يديه من كل شيء
متفرغاً لخلقي.

أتذكر اليدين القاسيتين
وهي تغلفني بكل ما ادخر لديه من الحراشف الخضراء
وبعد ان أنجزني.
. . أطلقني
ثم رمقني بفرح طاغٍ . . وقال:
إهبط أيها البائس
ولك وحدك. كل هذا العدد من الحيوات.

أتذكر ذلك الآن
وأنا اشتعلُ حبوراً
فلقد صفح عني . . صفح عني
وها . . تمتدُّ يدي
لتلقُف . . آخر حرشفةٍ. . .
يبست. □

عاشرته الكواسر
لكنها سرعان ما لاذت بالفرار
متبرمة من غلظته.

هو الذي إذا نطق تغير الطقس
ولا أحد يذكر ان رآه ضاحكاً. . أو باكياً.

●

ابراهيم داود

قصائد

سُكنى

■ ما بين غرفتي وغرفتِهْ
تمر سيداتٌ بالطحينْ
.. يمُد ساقَهُ..
ليقلب الحقول:
بين غرفتي وغرفتِهْ
فأحمل الحقولَ
ـ كل ليلة ـ
أحطُها مكانها
لكي تمر في الصباحْ
سيدات بالطحينْ!

صديق

لنترك وروداً على بابهِ
ثم نمضي
سيسعدُه
أن في الكون ناساً
«يشيلون» ورداً إليه!؟

الثلاثاء

الشعراءُ نسوا قاماتِهم في المقاهي
ونسوا أطرافَهم في المعاجم
نخلوا المشاعرَ في البارِ
مروا خفافاً . . .
لم يتركوا البابَ للضيفِ
لم يبرحوا النورَ
جاءوا بنصفِ يقينٍ
ومضوا . . .
بنصف يقين!!

موعد

مايو ثقيلٌ
كيف أحمل عنه روحي؟
تلتقي سُفني
فأقفز
كي أرى سفني
. . . .
متى جاءت
وكيف تغيَّرت يدُها؟
. . . .
. . . .
عامين في المقهى
أمد يدي!

مشهد

استلقى جنب البحر يمامٌ
وابتهج المركبُ
جرَّح صدأُ السُكّر شفةً
لتداوى . . .
شفةٌ مرهقةٌ
ما جرَّح صدأُ السُكّر!

مر الكأس بطيئاً
فارتفعت ساقانِ
وأيقظ زغبَ الليل شراعٌ
فاختلف الطرفان المختلفانِ قرونا ـ
حول السُرَّةِ ـ باللغتين.

ولأن العُمرَ قصيرٌ
اتفق الطرفانِ
ـ أخيراً ـ خلف البحرِ
ولكن . . .
كغريقين!!

حفل

دخلنا!
يدانا شتاءٌ
وبهو المضيفةِ بئرٌ
وكلُ الحوارِ يدانا.

تجرِّب روحي القماشَ
ليبتَل وجهي
واغد أمام الـمُضيفة كهلاً
يُنفِّضُ بعد الغناء
الخياما.

المرأة

قالت المرأةُ للرجل:
كيف أعطيك هلالاً؟
فابتسم!
صاحت المرأةُ:
كيف أعطيك هلالاً يا رجل؟!
فمضى
عاشت المرأةُ ترعى وحشةً
وتُشذِّب الكونَ
وتبكي!!! □

علي منصور

ثمة موسيقى تنزل السلالم

١

■ اليقينُ الذي غَشَّني
اليقينُ الذي هيَّأ الفخَّ، عامداً،
لعلامة
استفهامْ
(كانت منذُورةً لتكون رفيقتي).
اليقينُ الذي أوعز للبداهةِ، خِلْسةً،
كيف
تصطادُ
الطمأنينة بالعزاء
اليقينُ الذي أسرَّ بالحتمية، ففرحتُ
بينما مياهُ ضحكتْ
. . . في لوحات الأطفال
لمحنّهُ،
هذا الصباح،
يتوارى ـ جريحاً ـ خلْف هُراءْ.

٢

لم أكُنْ أضمّدُ المساء بقطن المراهقةْ
ولا كنتُ وعدتُ الصباحَ
ببنتٍ
في
الثانويةْ
لكنّني نمتُ فجأةً . .
فرأيتني أخبِّىءُ الحكاياتِ الملونَةَ في جيوبي
وأربِّتُ ظهر المقعد
الخالي
في
الحديقةْ
بينما أردُّ التحيةَ على الانتظار.

٣

هذا صباحٌ جميلْ
الشمسُ ضاحكةٌ، كفستان أنثى
وثمة
موسيقى
تنزلُ
السَّلالم
وعند الكُشُكْ . .
صحفٌ، ومجلاتٌ، وهاتفُ عُمْلَةْ.

٤

إذن، فانتبهي للحنينْ
الحنينُ الذي ينمو جوار النافذةْ
الحنينُ الذي لا يجفُّ في المنديلْ
الحنينُ الذي يصحُو
ليحرسَ
وحدتك
الحنينُ الذي يصحبُكِ، مساءً، للسريرْ
الحنينُ الذي يفسدُ الوسادة
الحنينُ الذي لا تضيع رائحتُه
الحنينُ الذي يعتريكِ، كُلَّ حينٍ، . .
نيابةً
عنّي!!

٥

لم يكُنْ الميكانيكي فَظّاً،
مثل هذا اليومْ!!
الصَّبيُّ الذي فرَّ ساخِطاً
بأليتين متورمتين
تذكر ـ عند باب الكنيسة ـ
صورةً عاريةً
كان قد خبأها، خلْفَ لوحةِ المفاتيحْ
هل ستصدِّقُ ابنةُ البواب
أنَّه الآنَ في حاجةٍ عابرةٍ، لسِكِّينْ
ربما يشكو لها ـ لاحقاً ـ
ألَـمَ أليتيه.
رُبما يلعنُ امرأةَ أبيه عند العتبةْ.
وربما يبكي خِلْسةً
قبل أنْ يخْلُو

ـ من جديد ـ
بالصورةِ العاريةْ.

٦

ها هي الشُّرفةُ الملونةْ، في شارعِ المقريزي،
هُنا .. ذات عصرٍ من أغسطسَ
بينما أتطلعُ للشرفاتْ
مُتسائلاً، من فرط تشرُّدي، عمن يكونُ سُكّانُها
داهمتني نظرةُ امرأةٍ بَضَّةْ
فانتبهتُ ..
كانت البنتُ فخذها لِصْقَ فخذي
بشكلٍ لافتْ
ونهدُها النافرُ يسعى
ليدخلَ تحت إبطي الأيسرْ
بينما كذلكْ ...
رأيتها، قطرةَ اللوعة، تسقطُ
من شهقة امرأةٍ بضَّةْ
من الشرفةِ الملونةِ.
ها هُنا سقطتْ، منذ عشرين عاماً، قطرةُ اللوعَةْ
لتصحُو اليومَ، ـ عند عبوري ـ
فخذاً لِصْقَ فخذي
ونهداً نافراً يسْعى
طرِّياً .. تحت إبطيَ الأيسرْ.

٧

واللّهِ من الممكن أنْ تصبح الحياةُ أجملْ
ماذا ..
لو أدعُ الباصَ ـ هذا الصباح ـ
يفُوتُني
وأخاصم الصحيفة عامداً
ثم أعرجُ على بيت خالتي، تلك التي لم أرها منذ عام،
يا حبذا
لو أصادفُ عندها مناسبةً
تستدعي المشاركة
مثلاً ...
أن يكون زوجُها، عُضْوُ الحزبِ،
من الترع الأخيرْ.

٨

كانَ من الممكن، جداً،
أنْ آخذهُ هكذاً، في عناقٍ طويلْ
وأهزّهُ
ـ غير مُصدِّقٍ ـ
كأننا رفاقُ حزْبٍ قُدامى



وكان من الممكن
أن تغافلنا القهوةُ، وتبرُدْ
بينما يضيقُ الوقتُ عن حكاياتنا
بدلاً
من هذا الرعب الذي تملكني
مُذْ جلس قبالتي، هكذا، هذا الغريبُ
وبدأ يحدِّقُ
من ركنه القَصِيِّ
مع أنني، واللّه العظيمْ،
طَيِّبٌ جداً
وصالحٌ لبلادي.

٩

جرِّبوا مرَّةً، أيها الرجالْ
أنْ تساعدوا زوجاتكم في المطابخ
رُبَّما، سهْواً،
تمسحون الغبار عن ذكرى قديمةْ
إذْ يسقط الكأسُ هكذا،
على غِرَّةْ
فتصحو الزهرةُ (البلاستيكْ)
وتهتز الستارةْ
جربوا، لن تخسروا شيئاً
ربما، خلسةً،
يراكم الصغارُ هكذا، متلبسينْ،
فيطمئنُ اللعبُ
على سُلّم العمارَةْ
بينما ..
يتهيأُ السريرُ لِحظِّهِ ... مِنْ جديدْ.

١٠

الولدُ الجميلُ، صاحبي
تماماً، قبلَ ان نقول: إلى اللقاءْ
سألني جنيهينْ
آه، كيفَ فرَّتْ مني (لأ)، هكذا
كأنني
واحدٌ
آخرُ ... معهُ نقودْ!!

١١

لا تبتئسْ، أيُّها الوحيدُ،
تأمّلْ:
كمْ أنتَ ـ الآن ـ ضَروريٌ
للذكرياتْ
ومع ذلك ..
ثمة
ذكرى
جميلةٌ
لا زلت تتركها هكذا، وحيدةً،
في المحطة القديمةْ!! □

فتحي عبدالله
مواليد ١٩٥٧

ضاحية الشهيد

١

■ رأيت نجمتين بحيازة
رجل أعمى
فسألته عن الجسر
أشار إلى الكتان
ومخاوف الحروب.

٢

ويرحمة من أبي وضعها قرينة
لنزوحي، وكللها بالخوص حتى احمرَّت
يداي من الضرب، وضرجت
أطلب الفناء
[تحصَّن بجوادين حتى تصل البحيرة وتكلَّم كما ترى تشرف على الموت وتسمعُ حصد غلالٍ. فإذا حملوا أمتعتك واحتفلوا بضيوفك، فاغسل مثنى وثلاث حتى تكشف عورة أمك].

٣

الأثـريون احتفظوا بخفين لي وغالباً ما يملؤون الصوامع بالتصاوير ولهذا أمسكت نعمتها عنيَ وقالت: سبع سنين تحمل الغـلال، وتـروح السوق بنول أبي، فأخذتُ البئر لأغراضي وكشفت عن العمران في أول القماش وهللت لثيران تحمل موتها للبراري. طردوا عن الماعز كوفيتي واستردوا الجزيرة.

٤

أخصُّ حبيبتي بالفرجار وأقلام البوص، أكلتْ ثومِ المائدة ولم تشبع. طلبتْ آخر مقتولٍ صَحِب الماعز. وضعتُ القوسين أمامي واستقمت كمملوك يضعِ الجثة في تابوت. نهض شعيرٌ كشف الربُ عن روحه وسرى إلَّا لأضلاعي فسوّاها هياكل من تراب. وأمسك عني نيازك القطب، وأشبعني عطشاً لاحتكاك الجناح فطرحتُ على حبيبتي تخليص أوردتي من اليود وأشباح الطير، فنفتْ زيارتي للمقابر وقالتْ: أحد عشر كوكباً يبلغون الشجرة ولا يؤمرون إلَّا باسمي. فاحملِ ثيابي لأمك وحدثها عن شرابي. تنعس الحجـرات يومـاً كاملاً بعدها يشهر الزائرون حِرابك وتوزع الغلال في سلام. □

طاهر البربري
مواليد ١٩٧٠



بكينام

■ حزني أكبر من حجم ذراعيها
تلك الفراشات بعض الوجود الحرام
وهذه التي أقطرتها أمشاج جسدي
ما راودتني ساعةً عن رعشتي
أو خبأت شمساً . . .
تُسافر فوق جلدي
أنت واحدٌ . .
وهي واحدةٌ
تكاثرت فوق المرايا
صاحبتي التي شاركتني . . الحبوَّ في الهجاء
واللغط في المطالعة
هي صاحبة نفس الحياء . . والمراوغة
هي الأجنبيةُ التي علمتني التمرد عليه
فرشقني بالشعر
قلتُ . . فلأجتنب فوضى الرجوع
ولأجهز رشوةً تغوى الملائكة
فلربما ينسون كتابي
والفتاة التي رافقت حجلي في الدائرة
وجهٌ كصاحبة هذا الانشطار الخارجي
المرأةُ التي علمتني . . كيف لا أحبها
أصعدُ الهرم المدرج
أعودُ ماء في دورة الماء
وتحط باكينام نبضة خوفها
في معطفي

غانية مونبلييه

عرقٌ بين خصرين
فضاءٌ من موسيقى السائسْ
أحرق قلنسوة الفلاح الافريقي
. . . أبي
«شدوان» إقتنصتني
يستنتج دافيد من كأس (الفودكا)
تراتيل مولانا في كتب البلدة
تميمة أمي
تسّاقط في هاوية الافرنجية
حين تجردني من جلباب الموروثات
وتهيىء لبعض جيوب لقاحي
«عدوى جليد الجسد»
رياح مونبلييه
تمتزج بأعضائي
شعلةٌ من الفجر/انفضاضي
ومطاردة العسكر في منحدرات «الوهار»
فهل كان انكشاف الغيم
ساحة للقاء عري
اختبىء في نعاسها
أزرعني فوق وسادتها
فننسكب معاً في زجاجةٍ بالبحر. □

حميدة عبدالله

هل تشرب الكوكاكولا..؟



■ أعلن لكُم عن المرأة
التي أدخلتني من بابٍ:
(قفا نبك)
وها أنا منذ خمسة عشر . . .
مازلت واقفاً . . .
يرجمُني المارَّةُ
ويعيِّرونَني
فهل من صباحٍ
يُعيرُني نعليْهِ
كي أجمع البلاغاتِ السميكةْ . . . !

بالأمس كنت تسوق المرأة البلهاء
وتهشّ عليها
بالتفاعيلِ . .
وها أنت
تسوق العالَمَ
وتهشّ عليه بالماء والنارْ . . .
يا رفيق الأفعى والجحش
وسيّد الخيبة النبيلةْ

اللعبة
أن تثير الشكوكَ
وتوقع السماوات والأرض
في شركْ
هل تشرب الكوكاكولا
على قبر الرجل
ذي الصلعة الخصوصية
أم تدخر قليلاً
من الضحك
كي ترطب المدن
التي تدلّك الهواء
ها هو الرجل . . .
يتهم الرياح بالشيزوفرينيا
وصلعته بالبرجوازيةْ
ويديه بالنميمةْ
يجلس على ذكرياته القرفصاء
قذاله يستند إلى غطرسة عاليةْ.

وروحه **كالغبيطْ**
وليس من سببٍ
بين يديه
يجعلُ اللُّغةَ
تُخرج أطرافَها
من جيب الصحراءْ
وأنت . . .
آه كم ركضت النساءُ
في حُنجرتكَ
والإوزُّ الذي في قفطانك
يكرّس مظاهرةً خضراء
ويعلن اعتذاره عن القبعاتِ الفارغةْ
وأنت . . .
في أريج أخطائكَ
تلوبُ على وجدِكَ
كاليعاسيبِ
حافلاً بالرموز . .
تقف بين الوردة والمصيرْ
وحتى لا يصدأُ النهارُ
الذي يمدِّدُ ساقيه من التعب
أيتها الجيوكوندا . . ما أروع
الفضاء الذي بيْن عينيك ولذّة المطاردةْ. □

نادر ناشد
مواليد ١٩٥٦

ثلاث قصائد

■ **في المقهى**

مغني المقهى مريض
يبحث في ركن عن صديق
يبحث عن قصيدة دافئة.

●

التهمت النظرات أجواء المقهى
تبدد الحوار
واشتبك الصمت مع ثرثرة السكارى
وكان واضحاً ان المغني متعب
يزرع في ركنه سأماً
يسترجع كمداً ـ ذكرى ما.

●

قلبي طفلٌ يرفض ان ينمو أو يشيخ
يطمئن في كل ليلةٍ إلى نضارته
ويمسحُ الترابَ عن غلافه الشفيف.

●

دخلت «أولغا كاريل» المقهى الباريسي الكئيب
عيناها كانتا الحوار المرتقب
وخصرها الممتلىء يعطي لشتاء أوروبا دفئاً ولهيباً
ألمح فخذيها البيضاوين، مشدودتين كأوتار القيثار
وأليتيها شامختين كتيجان الملوك
وأصابع قدميها البرونزية تشع عطوراً وموسيقى.

أولغا كاريل

باريس هادئة طاغية
أنثى تستحم بنار الذكورة
وتستظل تحت معطف الشهوة.

●

حين هبطت قدماي أرض باريس
أعطتني ثمر النور
وغسلت حشائش البرية بقصائد بودلير
ودعتني كي أدخل في غموض الأحداث.

●

شرفات باريس في الليل، أطباق طائرة.
تهبط من كواكب مجهولة
تنغرس في رمل التأمل
وتأخذ رأسي بين يديها
تعلق معطف ذاكرتي
على حافة الشك.

ماذا أعطتني باريس في هذا الليل الغامض
فسفور الرؤيا يتوهج
تطلع من بين البنايات
وتسحب الأرض من تحت الكنوز والفوضى
تغرس الممكن والمستحيل.

●

أولغا كاريل
فتاةٌ روسية تعشق باريس مثلي
تنهض من بين أضلاعي
تتحرك أنفاسها، في هيكلي
وتولد من رئتي
تتشاجر مع جواز السفر
ترجم أشباح الماضي
وتقاتل الساسة
تنفخ الرماد على عيون السفائن المهاجرة
وتنام في خلاياي.

●

عندما تطلُّ عيناكِ في هذا الفجر
وفيها موسيقى الشرق وتمرد ألوان قوس قزح
تتساقط في بحيرة اليقين
تنزع رداء الحقول الخضراء
تهجر أكواخ الخرائط الأرضية
تعطيني أسرار الجنة.





«ليالي» . . سان ميشيل

الفندق الأزرق في ضاحية «سان ميشيل»
لم يعد كما كان في الليلة الأولى
كان أرنباً مبلولاً يرتجفُ بقلبي ثم يسبح بي
نحو أبواب الجنة .

وكان في الليلة الثانية طائراً أليفاً
يهتز عند الباب المغلق
ويستحضر لي نساء باريس .

وفي الليلة الثالثة ـ صار صديقاً
مدَّ لي كأس النبيذ المضبب
ورويت له ذكرى الحب والمعتقل السياسي
ونام فوق بكائي . .

في الليلة الرابعة . . رأيت الفندق كائناً من الاسمنت
والزرع الأخضر الطالع من بين الجدران
يبدو كالنمل الهارب من خيوط المطر .

●

قالت جارتي التركية وهي تمد لي كوب الشاي الدافىء
ما سر هذا العذاب الطويل؟
لا ترسم لظلالك تاريخاً
وابتسمت عيناها في المرآة
كان اليومُ دافئاً
لكن أحداً لم يكن بقادر ان يتخذ القرار
أدهشتني أقنعة الشمس الباهتة
تنتشرُ ثم تغوص في خلايا المدينة
ومهرجان النساء، حيث يحتفلن
في غابات النشوة
وترمي شباكهن المنصوبة لاصطياد
الصباحات في رحلتها نحو الكهوف .

●

حان للوجوه المكتئبة تحت رذاذ المطر الدافىء
أن تنهض وتغزو مساحات السأم
الرجال الأجانب يتركون الفنادق للشكوى
والنساء الفرنسيات يتبعن نصائح شاعرهن «بودلير»
والأرض مكبلة والبحر يرفض التسول . □

محمد الكردوسي
مواليد ١٩٦٥

ليليث

(أو: الأرض التي نادت ثأرها)

■ جنّيةٌ جلست على تنورِنا يوماً. وقالت لي..
أنا الأرض التي من طينها يتكحل الفرعون
ماذا بعد!
والأرض التي شدّت على عينيك
بعضاً من سواد الليل
ماذا بعد!
والأرض التي كانت تهدهد نيلَها
بالصولجان السومريّ.

●

أماه.. إني راحلٌ
فالأرض نادت ثأرها:
عشْ مَيّتاً.. وابْنَ الخرابَ
كأنما في صخرة في الريح قد خُلِقتْ لنا.
يتساءل الرفقاء..
ماذا بعد مملكة السَّميذ وزعفران العشق
والزيت المقدس
والقرنفل!
من رأى في الحلم سيده وقد ركب النعامة
فَلْيُعرِّ حرثه...
صيفٌ كئيبٌ قادمٌ.

●

أماه.. إني عائدٌ
كفني على كفّيّ..
جسرُ الهابطين من الزنود
الصاعدين على البنادق صوب أغلفةٍ
تساوي فوقها «عيسى» بـ«نابليون».
ماذا بعد!
يغتسلون..
ماذا بعد!
ينتحرون..
ماذا بعد!
صفصافُ أصابعُهم على الجدران.

●

دقت ساعة القدر البهيم العاشرةْ
بغدادُ عضّت ثدي بيروت التي يسقى رغامُ الأرض من دمها
ولا تهدأ
فماذا بعد!
لم أقرأْ طوالعَها
ولكني رأيت نعامةً في الحلم
يركبها خصِيٌّ طاغيةْ
والحوت ينكح نعجتي
والريح تحملني إلى عرش الذي حمل الصفاةَ
ولم يُعِدْ لقريش طوطمَها
فماذا بعد!
لا أعرف..
قميصي كان عاصمةً
إذا نادى طغاةُ الأرضِ كنت أفكُّها
زحفاً على رئتي
فماذا بعد!
لا أعرف..
بكى النهران في زنزانتي
وتعشّيا بالمن والسلوى
فماذا بعد!
لا أعرف.

●

أنا جنيةٌ
جلست على تنوركم يوماً فأخبِرْني..
وماذا بعد!
لا أعرف
وماذا بعد!
لا أعرف..
[ويعلو الصوت. يهبط المتظاهرون مدارجَ العمر الذي ولّى. ترفرف هامةٌ.. خرجت من الرأس التي قُطعَت]. □

حسن خضر

أرق الوقت



● التاريخ

لم يرو التاريخُ تاريخه السري

إذ كان طفلاً غيرَ حكيمٍ

مشمولاً بالعتَه

فأمه الحضارة لم تدخله مستشفى الأمراض العقلية

خشية الفضيحةِ،

و داوت علّة عجزه بالطيلسان.

● رغبة

تقول أسماك الزينة: أودُّ أن تكون لي محارةٌ،

لتطردَني

ورملاً لأهجرَه

فردَّ شاطىءُ بعيد: أودُّ،

لأشتاق.

● وحدة

جسر صامت فوق صخب النهر

لم تدكّ حنينه قدمٌ

لم يعبره ـ صدفة ـ ظلّ

وعندما مرت عليه الوحدة، ابتسمَ

فهوَتْ أسنانُه في الماء.

● حدَثٌ

البئر الرائقُ الوحيد،

تلوثَ

والمدنُ التي لقنتها الأكاذيبُ سرَّ البقاء

تنهض في وجه البراءة.

● !

بيروت

قافلة من الماء

حاصرها العطش.

● المعرفة

شهوة تدق سلّم الكون

لكنها لا تصعد أبداً باتجاه السقف

حيث؛ الحقيقة تنام فاغرة الحواس

والسماء برداءٍ من غيوم

تلطخ البداهةَ بالفضيلةِ

وترمي الصحراء بمزيدٍ من سلالاتِ القبائلِ.

● أطفال ٢٠٠٠

ناموا على ثقة من طفولتهم

لم يحلموا بأن يصبحوا رجالاً حكماء

فقط، لم يدركوا ان البذاءة مكفولة للصباح

وأن الليل في الشرقِ دعيّ كبير..

على غفلة من طفولتهم؛

يزرعون الشهداء في الحقلِ

وفي البيت يربون الأراملَ

لكنهم احتاطوا ـ جميعاً ـ بقدر من البهجةِ

في الطريق إلى الفجيعة.

● سواد

بغداد سيدةٌ من رمادِ الله

تقتاتُ التاريخَ مُتبّلاً على قارعة الشرق

وأطفالها الباقون مصادفةً،

يخبئون بقايا النهار البخيل

تحت جلدٍ نحيلٍ،

تُرى.. من يستطيع ان يرفع هامةً

بين هذا السواد؟

● غياب

تغيبين،

تتسخ الملاءاتُ

وتستدرجني الذكرى إلى خارج البيت

حيث ألقى كارثة. □

أحمد زرزور

سعادات خطرة

خلود . .

■ مرةً واحدةً، ألا يُمكنكِ استقبالي في غفلةٍ من أمراض العائلة؟

الجوائزُ لن تُثنيكِ عن إبادةِ انحنائي،
أيةُ عبقريةٍ، لاتزالُ، تربيّ الدموعَ البدائيةَ لمناورات الليل
وتطعمني بَرْدَ الشُرفات؟

الآن،
وراءَ ذكرياتي المكشوفةِ في المطبخِ
هيّا، اطلقي أغانيكِ
ونامي
بهدوءٍ.

●

هكذا . .

الأشياءُ الأليفةُ، مَنْ ذكَّرها بسُعارها؟
أُقْسِمُ: كنتِ بريئةً لولا خطاياي؛ في غيرِ روحكِ أَجْلَسْتُكِ،
لم أفطن لتلك الرائحة . . .

هكذا، الشعراءُ، الخَشَبةُ لا يرونها،
ثم: من صدرٍ حوَّل إرادَته، يصرخُونْ.

هكذا: تبحثُ الفراشةُ،
والحقولُ جميعها
معضُوضَةٌ.

●

سروهيت/ الجامعة . .

أكنتما تضيئان: حين «سروهيت» أغلقت عليكما عاهتها،
أواصَلْتَ الظهيرةَ، ذاتَها، مُستجيراً،
أم الكُحْلُ قشَّرَ حَياءَكَ فلم يجد شيخاً
أو رغوَةً؟
أكان انصياعُكَ «للرَّحبانيةِ» مكيدةً لجسدٍ، في المدينة، لم
يُعلِّمكَ
ولم يَصْبِرْ؟

إلى مِسْكِ الأحزانِ، أَغْصْتَ،
على الأقلِّ: ليُفرغَ العذريون أكياسَ فحولتهم
أمام
ضَحكات
الجَامعة؟

●

الشيء . . خروجاً من الجامعة . .

أتذكرُ ما أسقطته «الحقوقيةُ» على أمسيتكِ الـمُرتعشَةْ؟
الرجلُ الذي انتبه لطوفانها: هل مَسَّكَكَ صرختها؟
أَشَمَمْتَ عينها في تلكَ الساعةِ المتأخِّرة؟
وماذا عن رذاذٍ قَرَصَكَ
ولُهاثٍ تأمّلكَ
وإلهِ زَجْرَ مُعاتباً
أهذه نهضةُ اثنينِ
في شارع
النيل؟

●

صيد . . .

في الصباح، المرأةُ بارعةٌ في طهو شِجَارها: بوجباتِ الكآبة
والصلاةِ يُرفرفُ النصُّ . .

كُفَّ، اذَنْ، عن تفويضِ الآخرين لامتصاصِ شرار الـمُخيِّلة؛
بعدَ قليل:
تنحشرُ، طائعاً، في قارورة رُعبها كجنيٍّ قضى وَطَرَهْ.

المرأةُ، محصولُها منك وفيرٌ/ أنت «الأكثرُ توفيراً من كُلِّ البحار الممكنة».

●



ولائــم . .

لا أرى نشازاً: الأولادُ من النجوم أسْقَطُونا

بحجارتهم،

ومن بكائهم تبادَلُوا الفَاكهة.

هل تتسع، للولائم التي يريدونها، عواصفُ

قادمَةٌ؟

●

شفــاء . . .

القصيدةُ تزدادُ انتفاخاً، من يُعيد تزويجها لنميمةٍ مُدهشةِ

اليدين،

الأرصفةُ، لم تُمسكْ ببهجتي الناقصة،

ومعقلها الأخيرُ تهدَّمَ . . .

فهل يظلُّ قميصي على وهمه؟

في الطابق الثاني، هل واجه العمالُ أغنياتٍ نفاذةً، هدَّدَتْني

ذات

يوم بساقيها؟

المعاولُ والأغنياتُ: مَنْ شُفِيَ من

الآخرْ؟

●

نزهة خارج الغرفة . .

أعترفُ: في حُلمي الأخير، انزعاجُكِ طَمْأَنني . . .

للصَّدْع الذي يُوقظ روحك/تهنئتي،

وللفتنةِ التي قادها، لزيارتي، شرودك.

يا لضجيجِ ضحكتكِ الغافي؛ هكذا تُسرِّبين نعومَتَكِ

المكثّفةَ

لوسادتي، فيما غرفتكِ

تهنأُ

بالفقَاقيع.

●

رائحة الأحباب . .

أيها السُّلَم، يا خازنَ روائحَ واشتعالاتِ السيدةِ، أكان

يُراودك، ما بين الخامسة والثامنة، عناقُنا؟

هل رأيت أنهاري تهبط معها؟

حقيبتها، أجَعَلَتْكَ أكثر غروراً؟

بم سَمَّيْتَ وسامتي المفاجئة؟

نَمْ، في قلبي، حتى النهاية . .

لن

يَخْذُلَكَ

تنفّسي.

●

عبوسٌ ليلي . . .

تستيقظ الوحشةُ على وسادتكَ الخاليةَ، المرأةُ نامت على

غفرانك

الذي يرفع كأسه، عقيرتُها تلاحق فراشاتٍ محتملةً حول

أساكَ.

السيدةُ الـمُخْمليّةُ، أيضاً،



كيف تتحملُ زقزقتها لقطةٍ، مُواؤها ذَبَحَهُ زوجٌ مُتْرَعٌ؟

الأمثولاتُ الشَّعبيةُ، الآنَ، زائرٌ مناسبٌ لظلِّكَ
الهاربْ.

●

مجال حيوي . . .
لا بُدَّ، لأحدٍ ما، أن يندمَ باتساع انتباهتها . .
بعد الهزةِ الأولى؛ أيّها أسرعُ: كرّ الغيمةِ أم فرارُكَ؟

لا بأسَ، أمامك عشرون ذاكرةً تُومىء
وسؤالٌ
وفاتنةٌ في الحيّ . . .

●

الأخضر ـ الأحمر . .
سَحَرَتني «الفلسطينية» في «المسرح القومي»، شَالُها الذي
كان يَحْرُس
قلبها أكنتُ غُبارَه العائد،
ظلّت المغنية تُطلِقُ المجرّات في فضائي، بأي فضيلةٍ
اسْتَقْبَلْتُ؟
جَعَلْتُه
الإيقاعُ الذي جَعَلْتُه يلامسُ الغمازتين، هل اتخذَ أشكالاً
تنتظرُها
جدائلُ
ماكرةٌ؟

●

هكذا . . .
اطو الصُّورةَ، ، لا يمزقُ منها وعدٌ ولا كراهيةٌ
أعشابُها: ليست للقتيلَ في الحديقةِ.

هكذا: بين رُكبتيك
يزدهرُ
صَمْتٌ . . . □

عبدالله السمطي
مواليد ١٩٦٥

حدائق الاشارة



■ . . إذا كان لي أن أُضيءَ الكَلَام
فَهَلْ يُبصرُ الليلُ ما ستريقُ الشُّموسُ على حقل بَوْحي؟
وهَلْ ستكونُ حَيَاتي أفْصحَ مما تصوّرت في زَمنٍ غابرٍ؟
هلْ أكونُ؟



«بقاهرة» لا تجوسُ خلال قَميصي
ولا تستردُّ النَّهارَ الذي يَتَمطّى بقلبِ خَيالي
سأرتجلُ الأسئله:
ـ أهذي الشوارعُ كانتْ هنا؟
ـ هلْ مَضَى الأصدقاءُ القُدامى؟.
ـ هلْ مَضَيْتُ أنا
ـ لأذْكَرَ حُلماً قديماً

. . . .

. . . وكانَ صديقي يُغنيّ:
«إذا ما الفراشُ تهدّج في نورِ أحْزانِه»: ـ
لأمرٍ ما سأكتسبُ المنافي   وبالتّرحالِ أحْشدُ لي فَضَاءَ
أنا منفايَ يَسْكنُني سَأمضي   لعلَّ اللّهَ يُلقي لي رَجَاءَ
لأمرٍ ما تَعُدُّ صديقتي لي   بلاداً، ثمّ تهْجرني مَسَاءَ
لأمرٍ ما أُصدّقُها وأُلقي   مَعَاذيري وأرْتجِلُ البُكاءَ
أهَذَا الدّمْعُ يكْفي كي أُوَاسي   حُشَاشَتَها وأحْتَرِقُ انْطفاءَ
كَتمْتُ الحزْنَ في قَلْبي ولكنْ   إذَا ما سَالَ أصبحَ «كربلاءَ»
فلا طَلَلٌ أضَاءَ بيَ المَراثي   ولا جرْحٌ أراقَ بيَ الغِناءَ
كأنَّ الوقْتَ مرآةٌ وعُمْري   تكسّرهُ الأماني لوْ تَراءَى
وماذا بعْدُ؟ عنوانٌ غريبٌ   صَبَاحي، نجمةٌ غزلتْ هَبَاءَ
صنيعٌ لا يجسّدُني صُراخي   وفوقي اللّيْلُ ينتعلُ الدمَاءَ
وماذا بعد؟ آجالٌ أمامي   سأحْياها لترْجمَ بي العناءَ
أنا المهزومُ كلياً.. لماذا   تراني حلْكةُ الماضي رُوَاءَ؟

والْغو صباحاً، صباحاً: ـ
تغيّرتِ الأرضُ
أصبحَ هذا الترابُ أثيراً
وشدَّ الهواءُ بحيطانِهِ الأنْثويّة كلَّ الدموعِ
وماسَ الجنونُ.

ابْصروا . . .
ـ إذا كان لي أنْ أخطَّ الكلامَ ـ
البلادُ على جثتي ذُبحتْ
وعيونُ النّهاراتِ ينزفُ فيها الأنينُ
وهذي الشوارعُ يا أصدقائي
تخونُ، تخونُ
فهلْ ستكونُ؟

. . ابْصروا يا رفاقي الكَلامَ
تداخلْتُ فيَّ، وأغْفى الرّمَادُ قليلاً
وضجَّ بقيثارةِ العمْرِ نزْفُ الفناءْ
أنا كلمةٌ من دثورٍ
أهبُّ على جَسَدِ الرِّيح ، أطْمسُه
وأغنّي المراثي إلى آخرِ الوقْتِ
آخرِ ما يستطيعُ البكاءْ
أنا غضبٌ من سُدَى
نشيجٌ يميسُ
وطلقٌ من العتماتِ، كَذُوبٌ، ومَاءْ
فلا وطنٌ مارقٌ بخلايا خَيالي
ولا شيءَ خلفَ غدي يُسْتضاءْ
كأن المدى شاعرٌ، وخُطايَ عيونُ النساءْ
فيحملني لغيابِ الكلامِ
وأحملُه في صحارى رحيلي
لصحْو الهباءْ.

أنا صاعدٌ في نزيفي
فجسمي مُدمّى
وصوْتي مُدمّى . . واسْمي مُدمّى

أنا صَاعدٌ
صَاعدٌ في نزيفي
فلا شيءَ يبْقى سوى الكِبْرِيَاءْ
لا شيْءَ يَبقى سوى الكِبْرِيَاءْ. □



نهاراتٌ تكابدُني وأرضٌ تخفّفُ وطئَها عنّي مَسَاءْ
أنا منْفايَ يسكنُني سأمضي لعلَّ العشقَ . . يُلقي لي رَجَاءْ

٣

خُطاها ـ خُطاهْ
ـ آهِ ما أعذبَ النّار
حين يكونُ على المرْءِ أنْ يسندَ العاصفَهْ
على خَصْرِ أنثى تنوسُ مواويلُها في المتاهْ
ـ آهِ ما أقْربَ البرق
حين يريدُ اجتياز الغناء إلى دمعةٍ تتراقصُ تحت دماهْ
ـ آ ما أصعبَ الموت
حين يخبّىءُ في جُرْحِهِ نَسْمةً من بكاهْ
آه ما أكذبَ العشق
حين تطولُ الحياهْ

٤

ابْصروا يا رفاقي الكلامَ
سأصنعُ من أبجديّةِ عُمْري الطريقَ

محمد عيد ابراهيم

الفكاهة سيقت إلى الملح

■ قراءة الحرب

لا بأسَ
عِيلَ صبري
وما اعتكفتني خديجةُ
ذهبَ الدودُ من بهيمةِ الحواسّ فاصدَعْ
كالقارّ من اختلاطٍ
فتقذفُ الماءَ عن الشجرةِ
صبّ عياء
يا آغا الثورةِ
الأعاريبُ من عُنفكَ .

هدنة الحرب

قبل الطحن بثمنٍ بخس
الشريعةُ تبقُرُني لإصلاحِ عُطلٍ
مدائحُ
لُقمةُ العدم .

عاطفة الحرب

مدنٌ منذ آدمئذٍ
هوسُ الملوكِ
قِنّبٌ على بطنِ ذاكرةٍ
تتعطّلُ
أيدينا مِشعلاً صارَ بلدي .
رقيقٌ من خزفٍ
أن تديرَ فمكَ .

أدب الحرب

الملكُ
فَتْكُ الآخر
عمّ
أن يعني
قَبْضَ النزيفِ بريقكَ
مَلَذّةُ إحسانِ القيامة .

كتابة الحرب

قدمُ الذئبِ تتبعُها أخرى .
خلا المجدُ
في قعقعةِ الشهداء
كعظم سماوات جنسية بهذهِ الرواية .
طلاقُ مآذن
من هلاكٍ تمّ فجأة .
الزمنُ الميّتُ إلاّ
أن يفرَّ مُعلّقاً بفخذيكَ
ماءُ حيْضِ اللغةِ .
الأصنامُ يُرضيها التماثُلُ .

ظلّ الحرب

جملٌ على فخذي امرأةٍ
تئنّ بالتفاصيل من كبوته
مُفرغاً ذنبَ أحشائه وعوت
من نزهةِ الميراث .
يا غاطساً أين نحيبي
كالفلكيّ عند الفجر من حاجته .
فيُبطىءُ ويضِلُّ
لا
دعوني
غالبية . □

ياسر الزيات
مواليد ١٩٦٦

آخر لحظة



■ في الفنار المناسب
يجلس خفاش
ومائدة من الدماء ترقبه
يتذكر ـ بفخر ـ أطفاله اللزجين،
يتذكر الملاح العتيق
الذي ـ بشكل مضحك ـ يمشي في الهواء على رأسه،
الذي ـ بطلقة واحدة ـ أضاء حياته،
الملاحَ العتيق ـ
عندما كان يتذكر،
عندما كان يتمتم :
«الأرض أنثاي»
ثم يشرب آخر لحظة
بطلقة واحدة.

جذوري

٤

في خرقة ملوثة وضعت أبي
عندما كرهته لأول مرة
وهو يحدد وجودي بحروف أربعة
ثم يزرع النار في جسدي
كأنما عليه ان يطهرني
أو
ربما قد أوحى ان امرأة ستجدني
ـ ذات يوم ـ
نائماً في حديقتها
ثم تفقأ عينيَّ
بآخر قطعة من ثيابها.

٣

في ظهيرة كهذه
سيكون عليَّ ان أحب
وربما أدرك
أن المشهد ذاته
ـ بكل قسوته ـ
يتكرر . .

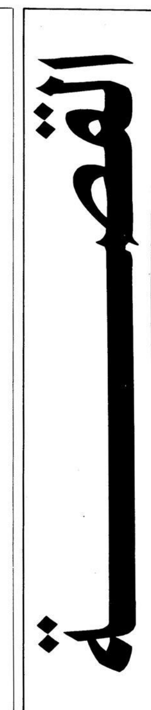
٢

بكل قطعة تقذفني الحياة
كأنما
أحاول ان أجرب فيها ذكورتي . .

١

. . وما الحب؟!
أجدادي جديرون بالخيانة. □

أبطال جدد في



■ ثمة معركة حامية الوطيس حول امارة القصة والرواية في مصر بعد محفوظ وإدريس، لجهة الكتابات النقدية والشتائم المتبادلة بين أجيال تتدافع لاقتسام الارث وحمل الراية. وهناك أيضاً أسماء رافقت محفوظ وادريس ولم تأخذ نصيبها الوافي من النقد والشهرة، بسبب سطوة ونجومية هذين الأخيرين. ومن طريف الأمور اعتبار أن كل من جاء بعدهما هو من الشباب. حتى لو كان عمره خمسين سنة وما فوق، أو انه يملك رصيداً عالياً من المؤلفات في الرواية والقصة. فثمة جيل مغبون الحق، يبدو انه يحاول الآن أن يستعيد أنفاسه. ولكن عبر كتم أنفاس الآخرين.

ثمة خصب في الانتاج الروائي والقصصي في مصر، ويمكن اعتبار الرواية أنها ديوان العرب الحديث كما يقول علي الراعي، ومصر لها المكانة الأولى في السباق الروائي العربي إن لجهة الكم أو النوع أو التجارب. ويترافق مع هذا الازدهار، هجمة سينمائية مصرية على القصة والرواية وإعادة تطعيم السينما بالأدب، دون أن نغفل تالياً تأثيرات السيناريو السينمائي ومشهدياته على التقنيات الروائية.



أرض الحكايات

وتتقلب التيارات والجماعات في الرواية والقصة، لجهة رؤى أصحابها ونظراتهم المختلفة إلى العالم الروائي، من الحي الى الشخصيات أو الحدوتة بكاملها، في سياق من البحث عن التراث الاسلامي، أو القبطي أو الفرعوني، أو العودة الى الشارع، بالاضافة الى الفانتازيا في الحدوتة واللغة. وثمة ظاهرة جديدة هي الكتابة عن تجارب عاشها روائيون في الخارج، كرواية «البلدة الأخرى» لابراهيم عبدالمجيد وتجربته في السعودية، الى رواية «مراعي القتل» لفتحي امبابي وتجربته في ليبيا، الى صنع الله إبراهيم في كتابته عن بيروت، إلى آخرين يكتبون عن أماكن أخرى، عن عواصم أوروبية أو أميركية. إنها إضافات أخرى في المكان للمواطن المصري الجوّال.

ونحاول في هذا الملف عن القصة القصيرة، كما في الشعر، أن نقدم تجارب قصصية جديدة لجيل التسعينات في الحدوتة المصرية التي تندفع وتتواصل وتتماهى مع تجارب مصرية سبقتها، وتتقاطع مع تجارب عربية أو واقعة تحت وطأة كتابات غربية في سعي محموم للإضافة. جيل التسعينات في القصة المصرية، يبحث عن مكان وزمان جديدين في أرض الحكايات. □

القصص خاصة بـ «الناقد» وتنشر للمرة الأولى.

٦ قصص

القفص

■ وظل هذا القفص الصغير منزوياً في ركنه، وأسلاكه المتداخلة تقطعت وبدت فرجات لا تني تتسع مع مرور الزمن.

وهم من حوله دائبو الحركة، يستخلصون النافع مما كوّم في الشرفة، ويخرجون الباقي للبيع. منذ متى وهم يفكرون في اخلاء البيت من تلك الأكوام التي تمتد أسفلها طبقات تراب، تكثف عند التقاء الأرض بالحائط، وتتوزع فوقها قصاصات ورق وأقمشة وبقايا خيوط قد تعلق بها يعلوها.

اقترب من القفص، وصاح فيهم أن يعيدوه الى مكانه أو يضعوه في غرفته.

لم يمر وقت طويل . . .

وظل هذا القفص منزوياً في ركنه، وأسلاكه المتداخلة تقطعـ. . .

بينما هو باق يذود عنه وعن طيور لم تزل. . . □



البداية

■ من حين، وهذا المكان يُحكى عنه.

لا ترسخ فوق أرضه أية بناية، لا تكتمل الحفائر فيه، والملصقات لا تلبث أن تمّحي معالمها.

صار مكاناً مهجوراً.

يدلف اليه من يبتغي استرجاع ذكرى أو يمنّي نفسه بدرر مرصودة له.

وحوله أحكم سياج الزمن.

تتراءى مداخله للعابر شراكاً يحاذرها من يعايش أنحاءه ويبصر كل تحولاته.

من حين، وهذا المكان يُحكى عنه.

وهو في صمته يعد مساربه لتنطق بتاريخ لم يُكتب. □

المُشتهى

■ وهم يشيرون الى مواضع في جسدها، حَكوا.

لم تكن تعرف بامتلاكها كل هذه الجروح.

شعرتْ بدمها يترقب اغفاءة منها ليسيل حتى آخر قطرة.

حذروها وقالوا صمتك الآن هو المرغوب.

انصرفت عن تذكر ما حدث، والخروج اليهم في تجمعاتهم وأخذت تلتمس المناطق النائية من المدينة، تسير في أنحائها لا ترجو غير ملاقاة ما لا يصد رؤاها، ويسفر وجهه دون حجب.

وطال السير والرجاء.

ولم يبق من زادها الموشك على النفاد إلا الصياح بطول البلاد وعرضها:

زرقاء المدن أنا.

زرقاء المدن أنا. □

منتصر القفاش
مواليد ١٩٦٣

وجل

■ تفتّحت الكتب والمخطوطات أمامي.
تشهر أشعاره من أقبية يريم عليها الصمت.
أمقدرٌ لها أن تفلت من الذاكرة وتظل غاية لا تُسبر؟
قرأتُ: قالت إعرابية تصف... ترثي... تشكو وأنشدت جارية... امرأة.
تساقطت أسماؤهن ـ فكرتُ ـ جزاء أن يبقى البوح، أن يظل الخيال دون جسد.
ودون أن تطرق الباب دخلت متدثرة بليْلها.
وبفرح ـ يحذر في وجل من الوقت ـ أخذتْ تكمل لي لياليهن الألف تجسد وجودهن، وتحررهن ـ قليلاً ـ من سطوة الناسخ. □

نداء

■ باغتني بوجوده في هذه الأرض الخلاء.
حدثني عن طول انتظاره وكثرة مناداته باسمي.
همّ القول بجهلي به أن ينبعث، لكنه استغرق في ترديد قصائد ـ قصيدة تلو قصيدة ـ حتى شعرتُ أنه لا يراني، وأنه يهتف بآخر قادم.
أخذ يلومني على كتماني كل ذا الشعر، مع دأبه على الايحاء به.
قلت: لا أفهم.
قال: أنتم أيها الشعراء دوماً تنكرون فضلنا.
قلت: لست شاعراً.
ضحك.
قلت: لا تخشَ غضبي، اغفر جحودك، فقط عليك أن تبوح وتطلق اساري من داخلك.
صحتُ: من أنت؟ ما اسمك؟
ابتعد وكأنني كنت أتتبعه، اختفى بين الجموع السائرة. أبصره في وجه يسلمني الى وجه آخر وجوه لا تنتهي تومىء لي بشعري المنفلت. □



غياب

■ متملياً في الرقعة الخشبية ظل زمناً. يحاول استعادة خلْقٍ أتاه دون وعد بالمكوث.
تراصت القطع في غير انتظام، بأحجامها التي لم يشذبْها. ويغمرها ضوء لم يحاول أن يبحث عن مصدره.
لم يقدر على كتابة أصول اللعبة في لحظات تكشفه لها. مأخوذاً كان ليس بشساعة ما تطويه من أحلام بل بمصائر من سيلعبونها.
في جلسته هذه التي طالت ـ وستطول ـ تتبع الأيدي محركة البيادق والأحصنة والفيلة والملوك والوزراء، وطالما ترقب النهايات دون أن يدركها.
ينغمس كل هذا في الغياب ويعود هو محاولاً استعادة قدرته على تحريك تلك القطع، قدرته على أن يكون مثل من سيأتون ويرثون عنه لعبته، قدرته على أن يدحض النسيان بامتلاك مفاتيح ما.
يسمعهم في وقت سيأتي يرددون الإسم. ويجد نفسه ينتظر دوره في المنازلة دون أن يكشف لهم عن جهله بما يجب فعله. □

التحويطة

■ جلس مرتدياً عباءته، واضعاً أمامه مجمرة يتصاعد منها دخان بخور، يلف الحجرة بسحابة كثيفة من روائح الكندر والعود والسندروس، وأمامه مباشرة جلست الفتاة بجلبابها الأسود المُوشّى عند الصدر وقد ظهر من فتحتيه طليعة تلين صغيرين ومدورين، تأمل الشيخ صدر الفتاة المنتصب أمامه وود لو استطاع امساكه بكفيه، أو حتى مجرد ملامسته، وفاجأه احساس كمن لامسه بالفعل، فقد سرت نعومة ما، وطراوة بضة في أنامله، وشعر بسخونة بين فخذيه، انتقل ببصره صاعداً الى وجهها المستدير ببياضه المشرب بحمرة الصبايا وطابع الحسن مثل البندقة أسفل ذقنها، تأمل عينيها السوداوين الواسعتين، وشعرها الأسود الطويل بخصلاته الناعمة والنائمة على كتفيها ووراء ظهرها، وقد لَمّته من أعلى رأسها بقمطة من الحرير الأحمر الزاهي، كانت خطوط الجسد الفتي مطبوعة على الجلباب، ورائحته الفواحة قوية مشبعة.

انتبه لصوت نحنحة أمها بجانبها، ورمق الجارة التي تجلس بعيدة عنها، لعّب أصابعه في لحيته الطويلة التي تخفي بعض ملامحه ونظر اليهم محدقاً وقال بصوت أخفى انفعاله: احكوا لي من البداية على كل شيء. واتكأ بظهره على المسند الموضوع خلفه متخذاً هيئة المستمع، بينما تململت الأم وتنحنحت وبدأت تحدثه: صلي على من يشفع فيك يا مولانا، ثم أشارت الى الفتاة، هي ابنتي الوحيدة، جاءت بعد أربعة صبيان، اسمها مريم، من يومها وهي منطوية شاردة، غريبة بين قريناتها، تفوقهن حسناً وجمالاً كما ترى، ومع ذلك هن تزوجن، أنجبن وعمرن بيوتاً إلا ابنتي، إذا تقدم اليها ابن حلال تجدها نفرت، انطوت، ضاقت أخلاقها، لا تطيق الحديث حتى معي أنا أمها، ابنتي طابت وطلبت الأكّيل، وإذا لم يحدث تذوي ويجف عودها، هذه هي الحكاية يا مولانا منْ طقطق للسلام عليكم، وقد شكرت فيك جارتي الست أم نبيل زبونتك القديمة.

اعتدلت أم نبيل في جلستها لحظة سماعها اسمها، ونظرت الى الشيخ الذي لم يلتفت اليها، بل نظر الى الفتاة وسألها: وأنت يا ابنتي لماذا لا تريدين الزواج؟ ولمّا لم يجد اجابة على سؤاله سوى هز الكتفين أكمل: عموماً اطمئنوا، إن كان معمولاً لها عمل فسوف أفكه وأبطل مفعوله بإذن المولى، وإن كان مسها عارض من الجن فسأصرفه بعون الله، فقط اتركوا لي اسمها واسم أمها وأثراً من هدومها تكون لبسته وعرقت فيه، ومرّوا علي غداً.

في اليوم التالي جاءت الفتاة بصحبة أمها وجارتها التي جلست بعيداً، كان الشيخ جالساً كعادته، وبين يديه المجمرة يتصاعد منها البخور، تابع بنظراته الفتاة وهي تتجه اليه، كانت ترتدي جونلة سماوية أبانت ساقيها المدورتين الممتلئتين، وبلوزة حريرية ضيقة التصقت بجسدها فظهرت تفاصيله الأنثوية، جلست بين يديه وبدأ الشيخ يباشر صنعته، قذف ببعض البخور فتصاعدت رائحة كريهة من الميعة والصبر والأفتيمون، ثم انه سرح قليلاً وبدأ يتمتم: يحسدونك على جمالك وهذا حقهم، والمسألة قديمة لكنها تحل على يدي، نظر الى الأم: العمل على قرموط سمك حي، والقرموط سارح في النيل من هنا حتى أسوان، وسوف أرسل الآن الأعوان في طلبه فيحضر في التو واللحظة.

قام الشيخ وأحضر صينية كبيرة ملأها بالماء، وضع يده في الماء وقال: يا حجر يا حجنجر، يا للي في البحر تنقر، تبيض وتفقس، ولا حد ينضر، تعالى، الوحا الوحا، العجل العجل.

وبينما هم كذلك، إذا بجلبة، ورأوا قرموط السمك طائراً في الهواء، ورأوه يقفز في الصينية، وسمعوا طرطشة الماء، وزعق الشيخ: الوحا الوحا. العجل، العجل، المطلوب وصل، انصرفوا بسلام بحق قدرة كن فيكون.

كانت الأنفاس لاهثة والعيون مبحلقة وهي ترى ما يحدث أمامها، انكمشت الأم ولمت ابنتها بين ذراعيها، بينما جرت الجارة الى الشيخ تساعده، مد الشيخ يده وقبض على قرموط السمك وهو يتلوى محاولاً الافلات من القبضة الملتفة حول رأسه، أشار الى الفتاة فتقدمت وحدها، وأشار الى سكين ملقاة على الأرض فأخذتها بين أصابعها، مدد القرموط على الأرض ووضع قدمه فوق ذيله بينما أمسك رأسه ورقبته بقبضته وقال لها: هيا اذبحيه بسرعة.

حين أتمت فصل الرأس عن الجسد انفجر سرسوب من الدم الأحمر القاني في وجهها، أمسك الشيخ بيدها وغمسها في بركة الدماء المتكونة وأمرها بلعق أصابعها، ثم بدأ في سلخ جلد القرموط حتى فصله عن الجسد فكومه وعبأه في كيس قماش ووضع معه ورقة مطوية عدة طيات وخاطه وناوله للفتاة: عملك انفك، وهذا حجاب المحبة والقبول، والآن اخلعي هدومك التحتانية. نظرت الفتاة الى أمها بكسوف فقالت: اخلعي يا ضناي، الشيخ مثل والدك. خلعت الفتاة الجونلة ووقفت بسروالها الداخلي الذي ظهر



خيري عبد الجواد
مواليد ١٩٦٠

ملموماً على جانب فخذيها، فرأى الشيخ شعر عانتها، ورأى شقها الأرجواني فبلع ريقه الناشف، أمسك الحجاب بيد مرتعشة وشبكه في طرف السروال بدبوس، ولمست يده ما بين الفخذين بحركة بدت بغير قصد وأحس سخونة الجسد، وشعر برعدة، انتبه للعيون المسلطة عليه، أشار لها أن ترتدي هدومها، قال وهو يضع بعض البخور منشغلاً بالدخان الكثيف المتصاعد بينها هو يلتقط أنفاسه: بالسلامة ولا تنسي الحلاوة إذا ربنا عدلها لك، ثم قال للأم: اسمعي، سوف أخدمك خدمة لا أفعلها لأحد، ارسلي لي ابنتك غداً بمفردها، فسوف أعمل لها تحويطة تقيها شر حسّادها، هذه التحويطة مهمة لإكمال الشغل، وسوف أعملها دون مقابل.

مالت الأم على يد الشيخ وقبلتها، وقالت وهي تهم بالانصراف: ربنا يفتح عليك يا شيخ ويزيدك من نعايمه، ودست يدها في صدرها فأخرجت لفة نقود وضعتها أمامه على الأرض ومشت ناحية الباب هي وابنتها وجارتها، وقالت قبل أن تغلق الباب وراءها: سوف أرسلها لك من النجمة، افعل بها ما بدا لك.

وابتسم الشيخ، وتراقصت شياطينه على شفتيه وهو يتأمل الجسد الفارع الرجراج يغيب عن عينيه. □

قصتان



غربة

■ لا تنتظر، إذهب بنفسك، ساعي البريد يجيء على مهل، خطواته المتثاقلة ستقتلك. اضرب وجهك ببعض الماء، ارتد ملابسك، لا تأبه للعيون المستغربة لهيئتك وأنت تكمل قفل أزرار قميصك في الشارع. ستسير قرابة الساعة على قدميك، سوف لا تشعر بالعرق النازف من جسدك حين يمتعك نصف الشوف، ها هي البيوت والحوانيت تتراجع، أسرع من خطوك أرجوك. أصدقاؤك سبقوك منذ قليل، واحد فقط مازال في المسكن يطهو لكم الطعام، يحرك دوماً أمره، كيف يصبر نفسه حتى تعودوا إليه بالرسائل؟! في كل مرة يقول: سأشاغل نفسي بالطعام وعند الرجوع ترونه واقفاً بالباب يفرك كفيه.

هان الأمر كثيراً. ها أنت تقترب من البناية القديمة فادخل، سيصطدم بصرك بنفس الوجوه، تمر عليها جميعاً، تقرأها، تشعر كأنك أمام مرآة كبيرة تظهرك بعشرات الوجوه. ذو النظارة السميكة يتفحصك، يسألك عن اسمك كالعادة، ثم يقلّب الخطابات بأيدٍ باردة. أعلم انه يحفظ اسمك ورسمك، لكنك ستجيبه على الفور لا وقت للنقاش، أليس كذلك؟ أعلم أيضاً انك تضغط الآن على أسنانك، تكوّر كفيك تفردهما، تعرض عليه مساعدتك. سيرفض مثل كل مرة، فلا تجهد نفسك معه، وحاول التحدث مع وجوه المرآة في أي شيء.

انتبه جيداً، ها هو يتلو اسمك. حاول التخلص من تلك الرعشة التي سرت في كفك المنبسط، ارفع أصابعك عن الرسالة لا تفتحها، أنسيت العهد؟!

الأصدقاء ينتظرون في الخارج، اخرج لهم وتماسك، ستجدهم حاضني الرسالات كما الضنى. في العودة سيخيل إليك ان الطريق ازداد طولاً. قليل من استثارة الأصدقاء للحديث ومشاركتهم تلك الابتسامة المصنوعة، سيهدىء من ضربات قلبك.

ها هو ينتظركم بالباب، سيحاول ان يخفي قلقه فلا تحرجه. قبل ان تفتح الرسالة مارس كل طقوسك المقدسة، هيىء الجلسة جيداً: اخلع ملابسك، ارتد جلبابك الأبيض، افرش معهم الطعام، ثم اجلس القرفصاء على سريرك. الجميع الآن على أهبة. افتح الرسالة واقرأ، إذا انتهيت من سطر أعده مرتين أو ثلاثاً، إذا انتهت الرسالة أعد قراءتها مئات المرات، احفظها كما القرآن. ككل الرسالات السابقات رتلها حتى تأتي التاليات.

تود لو تطول الرسالة فتصير مثل كتاب التاريخ الثقيل الذي كنت تمله في المرحلة الثانوية؟!

حدّق جيداً فيها أمامك ولا تنظر إلى اصدقائك. ليست رسائلهم أطول من رسالتك، استمر. هم أيضاً يكررون القراءة علّ حرفاً وقع من أحدهم وسط التلهف والشغف.

إذا انتهيت، وظننت أنك ارتويت، نحّ الرسالة جانباً، أنظر إلى السقف تخيّل ما شئت فإنهم ناظرون، وحاذر من تلك الدمعة الخائنة ان تغافلك وتفر من عينيك. ثم لا تنسَ ان تنهض، تساعدهم في تغطية الطعام الذي صار كالثلج. □

محمود سليمان
مواليد ١٩٦٧

طيف

■ كنا إذا جاء رمضان. تستهوينا الفرجة على لعب الكرة بالميدان الواسع المخضر بالزروع، فنشد إليه الرحال بعد الإفطار كل يوم. حيث أعمدة النور والزينة تجعل من المكان نهاراً. ثم ان الغيرة كانت تحرقنا ـ نحن العيال ـ فنفرك الأصابع ونخطط ملعباً صغيراً في الجانب الآخر من الميدان، وكنا كثيراً ما نختلف ونتشاجر على ارتداء لون الفانلات وأرقامها ولا سيما على أسماء الفرق ولم تكن المباريات تكتمل كثيراً، فنعود للفرجة وفرك الأصابع من جديد.

وكنا نلمحه كل مساء على طرف الميدان تاركاً زحام الفرجة على الكبار، فلا ندرك متى جاء، ولا نعلم بعد انتهاء الليلة قرب السحور أين يذهب بكرسيه المتحرك الذي يحمله. إلّا أننا تعودناه، فلم نعد نستوعب الميدان دون جلسته، بل كنا نداري عن أنفسنا ارتباك وجوهنا ساعة تأخره. هو أشيب الشعر يرتدي غطاء للرأس كالأجانب، صار ورمضان والميدان الواسع ولعب الكرة والشجار ونسمة هواء طرية بعد منتصف الليل: عالماً آخر نطير إليه كل عام.

وكنا نلمحه وهو يراقب جيداً تحركات أرجلنا وضربها للكرة ونراقب نحن حركات يديه اللاإرادية التي غدت تحركنا كفرقة موسيقية هو قائدها، وكنا نلقي عليه السلام كل يوم فيمنحنا ابتسامة وهزة رقيقة من رأسه. فإذا تشاجرنا في ذلك اليوم وزاد صراخنا.

احتكمنا إليه فأفتانا، ومن يومها صار هو الجالس على كرسيه المتحرك كاشفاً كل الميدان، حكمنا الذي يرضينا كلامه، وصار هو مع مرور الأيام أكثر حماساً منا يشاركنا تنظيم الفرق ويحثنا على الحضور مبكراً قائلاً قولته الشهيرة: «للرياضة مليون فائدة» ولما ناداه أحدنا ذات ليلة بالكابتن بان انتشاء وجهه كثيراً، ووجدناه في اليوم التالي يعلق صفارة في رقبته وكان ينزل أرض اللعب متابعاً للكرة أينما تذهب وشارحاً لأحدنا بعصبية: كيف أنه تعمد إصابة زميله. وهكذا صار منا وصار ورمضان والميدان الواسع ولعب الكرة والشجار ونسمة هواء طرية بعد منتصف الليل: عالماً آخر نفر إليه كل عام، فإذا كانت آخر ليلة من ذاك الشهر تحاشينا التقاء العيون ببعضها وبعينه وصار هو أكثر من نسيم البحر عذوبة. لكننا لم نكن ندري كيف سرقته منا بهجة اقتراب العيد. فلم نعد نفرح لقدومه، وانتوينا حمله على أعناقنا كما يفعل الكبار في الجانب الآخر من الميدان. ولأنه لم يكن أبداً كحكم الكبار فإننا عند انتهاء الليلة قرب الفجر لم نكن ندري أين ذهب بكرسيه المتحرك الذي يحمله. □



ثلاث قصص

المُنتظر

■ جاء.. لسنا ندري من أين جاء. ما كدنا نلتقط أنفاسنا بعد قيلولة الظهر حتى انبثق بيننا، وسمع مَنْ في الأركان.. من الحقول والمصانع، من قاعات الدرس ومن خلف المشربيات. تجمعنا نمسح عليه بعيوننا وبالقلوب تركت النساء الكوانين، وغادرن الصمت الحزين. أقبل الأعرج والأعمى، الجائع يوماً والمتسول أبداً، واشتعلت ذبالة وهن الشيوخ. أنستنا الفرحة، والشوق الظامىء كل الدنيا. انمحت من رؤوسنا خدع من تخفوا من قبل وسرقونا ثم انشقت عنهم الأرض فجأة، وكنا بعدها نرى صورهم وأسماءهم ذائعة الصيت في الواقعات الكبيرة فنعجب من غفلتنا، ونعض أصابع الندم. طارت بعيداً وطأة الجوع، والسحب القاتمة التي جثمت طويلاً في سمائنا. انطلقنا إلى الساحة فزيناها، ودون ترتيب كان كل منا قد أحضر حصيرة من بيته أو ملاءة، وتكدست كسرات خبزنا وبعض اللبن والتمر والماء.. فرشنا الحصير على امتداد الساحة الواسعة، والمقعد العالي الذي ما مل الانتظار متشوقاً لجلسته عليه.

كنا قد جمعنا طوبه الأحمر من كل مكان، وغطيناه بالملاءات المزركشة كي يليق به، وارتمينا على الحصير متوثبين نستمع إليه بقلوبنا

ربيع الصبروت
مواليد ١٩٥٧

وعيوننا وبالآذان، بالشوق الدفين الذي لم تنطفىء جذوته رغم مرار الصبر والانتظار، وقبل ان يبدأ، صفقنا طويلاً، وكثيراً صفقنا وهو ينسج من عسل وحرير أمانينا. بُحت أصواتنا، وتحشرجت الحناجر ونحن نهتف والأماني ترتفع أمامنا إلى عنان السماء. انتعشت عيوننا بالدمع المنتشي يثلج تشققات الجلد الجاف.. تحدث بكلام حلو وبكل الألوان، ومن فرط اندهاشنا مر الوقت كالسعادة أو كالعيد في حياتنا، وأفقنا نتلفت فلم نجده، وكلما تبخرت النشوة المعسولة تذكر أحدنا انه رآه من قبل، وصرخت مستدركاً ان الندبة التي على رقبته والتي ظهرت عفواً من خلف الياقة المحبوكة هي نفسها التي كانت عند مَنْ جاءنا من قبل يرتدي القفطان والعمامة، وأكد آخر ان نظرته الزجاجية الملونة والعجلة، هي نفسها نظرة من هبط علينا من قبل مرتدياً جلباباً فخماً، ومحملاً بوعود منمّقة، تذكر آخر انها هي التي قالها من تسلل بيننا في عصر يوم مثل هذا وفي نفس المكان، وأردف شاب متحمس انهم جميعاً ظهروا واختفوا فجأة.

تبدد في لحظة حماسنا، وانطفأ توقد العيون. سقطت كسرات الخبز التي كنا نلوكها مأخوذين، وبغتة انفجر الأعرج صائحاً، وأدرك الأعمى، فأمر بكلمات محددة وقاطعة ان يدعوا كل شيء في الساحة كما هو. الحصير، والملاءات المزركشة، والمقعد العالي، ونفذ صوته الأجش الصبور فارتفعت همهمات من الأركان عنيدة تؤكد مواصلة الانتظار. □

خداع

■ كنا عراة نتقافز، ونرش بعضنا بعضاً بالمياه، خرجنا نتقلب على التراب فشاهدناهم مقبلين. أشاروا لنا فعدونا إليهم، وابتسموا فتشجعنا وسرقنا لهم من حقولنا وحقول الجيران الفاكهة، والخضروات، وفي رؤوسنا تومض آلات تصوير كانت معهم مع أجهزة كثيرة وبنات جميلات. تهامسنا مبتهجين ونحن نخمن كم سيعطوننا، وطلب رجل ضئيل ان نخبره عن مدارسنا وعمل آبائنا وماذا نحب. اندفعنا نحكي حتى قاطعونا وطلبوا منا الجري دون ان ننظر خلفنا كي يصورونا من الخلف ويعرفوا الأسرع فيمنحوه مكافأة. انهمكنا في الجري.. جري.. جري.. نعرق، نتعب. انكفأت مصطدماً بإبن خالتي فتأوهت والتفت ناحيتهم متوقعاً انتصاري. ولكني لم أشاهد أحداً. عدنا منكسرين بتوجس فوجدنا مخلفات الطعام والفاكهة، وآثار أقدامهم. □

عزف

■ واجهونا على الباب بإشارات الصمت. تدلت أذرعنا ومررنا بينهم نتلفت بوجل ناحية صوت الشيخ، سيِّدنا في الكُتاب يقرأ، وحوله جموع كثيرة غير التي شاهدناها في الصباح حين طردونا من الدار (أنا واخوتي الثلاثة). لم يصبهم الفزع المعهود ونحن نمسح عن وجوهنا بقايا النوم، ونعلن بتحد عدم ذهابنا إلى الكتّاب. كانوا يريدون التخلص منا بسرعة.. أعمامي وخالاتي، وأقرباء لا نعرف إلاّ ملامحهم. التفتنا نبحث عن أبي فلم نستطع أمام دفعاتهم الملهوفة سوى رؤية ملامح جامدة تشبه ملامحه، وأخذنا نتجادل ونحن في الطريق إلى الغيط عن هذا الذي يشبهه. أكدت هناء أنه هو، فتسارعنا نؤكد انه ليس هو. ليس هذا أبي البشوش الذي يظل ساهراً يعزف على نايه العجيب عزفاً متقطعاً بهيجاً يثير ضحكنا ورقصنا، وعزفا طويلاً حزيناً، وأمي ملتصقة به مأخوذة ومُوَقِّعَة بكفيها، ونحن نجاهد حتى يغلبنا النعاس.. امتدت يدي إلى الغاب المزروع على شاطىء الترعة فسويت قطعة، وكذلك فعلتْ الأيادي. نفختُ فيها فسمعنا صوتاً يشبه صوت ناي أبي، ولكنه رفيع وشاحب قليلاً، وعزونا هذا إلى ان أبي لا يُسمعنا إلاّ في الليل.

انسللنا أمام تحذيراتهم الصامتة نحو السلم، وعلى السطح، أبصرنا أبي وحده، ينتحي ركناً، ويبث نايه أنيناً مجروحاً. ظللنا نتلفت طويلاً، وأبداً لم نعثر على أمي! انزوى كل منا في زاوية، وتبادلنا نظرات مكسورة، ثم ارتفعت أيدينا بقطع الغاب إلى أفواهنا، وأخذنا ننفخ فيها. □






الجذور المتناثرة

سمية عريشة
مواليد ١٩٥٥

■ (ما بين الغفوة والصحوة تراءى لها عمق الهاوية قُرب قدميها، فتملكتها الرغبة في البقاء).

انطلقت تبحث في الأزقة عن الجذور لتغرسها في الطين، تسقيها لتورق، وليختفي شعورها الدائم بأنها امرأة بلا جذور.

طافت بالحدائق تبحث عن مقعدين من (خشب). . ؟. تسألُ العابرَ عنهما. يقول وهو يشملها بنظرة وابتسامة ذات مغزى: (كان ذلك منذ زمن. . !)، ثم يهز كتفيه مخمناً: (لعلهما صارا وقوداً للهب. .). فتنظر بعداء الى المقاعد المصنوعة من (حجر). . !

تطرقُ بأصابع مُلحة أحد الأبواب. ينفتح. يطل وجه (الغريب) بديلاً عن الوجه (الأسمر) ترميه بنظرة استغراب ثم استعداء، تدفعه جانباً. تُنحيه. تدخل مهرولة الى العمق. تستنشق الهواء بارتياح. تبتسم:

هنا احتضن خصرها بيديه. . وهنا تمرغا على الأرض. وصوته الضاحك يكحل المكان: «اللي يشوفني هناك مخنوق بالكرافتة ومتنشى ميجيش في خياله حالي وأنا كده. . !». يتضاحكان في لحظة مسروقة من هذا الزمان. . .

يعلو صوت (الغريب) محتداً. تنتبه. تسأله. يخبرها: أن ذلك المكان كان يؤجر مفروشاً (للأسر)، ثم يردف بعد وقفة في الكلام: (وغير الأسر)، ويشيعها بنظرة استهزاء. يسألها في تهكم: فعن أيها تبحثين؟

تهرول. تجوب الشوارع كلاجئة. تدور بعينيها. تلعن من بدلوا ديكورات الأماكن. . . تميد الأرض تحت قدميها. تبلعُ ريقها غير مصدقة. تتحسس بيديها الجدران. تتفقد بحواسها الأشياء: عدة التليفون. . خرساء. . ! شروخ المرآة. . ! وردة بلاستيك صفراء! وعود منزوع الأوتار. . !

تتساءل في وجل: كيف دخلنا الى هنا؟. كيف دخلنا الى هنا أنا وتلك الأشياء؟. أتراني حالمة. . ؟ أم تراني قد أسلمت الروح وهذا هو المصير. . ؟ أم تراني؟ أم تراني. . ؟.

لم يظهر بعد في الأفق دليل. أغمضت عينيها. وفي لحظة من لحظات (البقاء) القليلة، يأتيها وجههُ (الأسمر) فتسرع بغلق أهدابها عليه. يخبرها أن الحول الذي بعينيها يزيدهما جمالاً. تبتسم ويبتسم. تسأله: الى متى؟. يجيب وعيناه تبتعدان: تكفيني لحظة. تحدثه عن خوفها من الأشياء (المؤقتة). . وتوقها المجنون لاحتضان (الجذور). يحدثها عن الملل ورتابة الأشياء ومقته لتلك الأمور. تدرك (ابتعاد المسافات). يلمح بعينيها القلق، يربت على شعرها مواسياً: ان القلق يصنع الانسان. تهز رأسها دون اقتناع. تعود الى قصاصات الورق حاملة الأسرار. تجد أن يداً عابثة مزقت أوصالها ونثرتها في الهواء.

شاهدها القوم تجري في كل الاتجاهات. يلتف حوله رقبتها سلك تليفون تتدلى منه سماعة سوداء. وتضع بشعرها وردة بلاستيك صفراء. تطبق بيسراها على عود جدّلت أوتاره من شعرها الطويل. تدندن بين الحين والحين بمقطع: (لا زال في العود اخضرار. . .). تنحني حيناً وتنتصب حيناً آخر. تلملم من الأرض والهواء أجزاء صغيرة. صغيرة متناثرة. □

الشيخ خيري

■ حكى مع محمد الطوّاب ـ زمان ـ عن عمود الأزهر، وعن عطر سيدنا الحسين، وعن نساء في شوارع ضيقة يوصلنه لأبواب المساجد، وعن أهل الله وأهل البيت والناس والبركة، فقال محمد الطوّاب:

ـ مدد

وظل الشيخ خيري يمشي، ويأتي، إلى أن أصبح غير قادر على المجيء.

وبعد سنين حاول ان يتساند ويمشي، ويسأل عن الدكان، فقالوا له:

ـ قفله

كان ـ في خاطره ـ كما كان يُريد ان يُسلم عليه، ولكنه على مقربة من باب الدكان قرأ له ما تيسر من السُّوَر، وسلّم على أمه، وقال لها: ربنا يرزقه، ومشى. ركب تيوتا، ونزل على عتبة بيت الشيخ «عمران»، وكان الشيخ «عامر» يكنس، ويمسح زجاج الكلوب بالصابون والماء والليفة، فرمى الشيخ خيري السلام فرد عليه:

ـ أهلاً عم خيري.

فقال له:

ـ أهلاً يا عامر.

وأخذ الشيخ خيري يغسل في الطست بصابونة الشيخ عامر الطاقية والشال ويسأل عن مكان القدرة.

فقال له الشيخ عامر:

ـ القدرة في المقام ... طلبها الشيخ عمران.

فرد عليه بعد أن كسر على عينه:

ـ الشيخ عمران طلبها ...

قال له:

ـ أبوه.

سكت الشيخ خيري، وخبط على الباب «فرج الله» وسلم عليهما.

. عبد الحكيم حيدر
مواليد ١٩٥٦



فقال له الشيخ خيري :

ـ آه يا كلب خمس سنين ما اشوفكش يا وحش . . . أخص عليك .

ولم يستطع الشيخ عامر، ولا «فرج الله» أن يُسكتا الشيخ خيري عن البكاء، حتى دخل عليهم الشيخ عمران ـ من السقف ـ كما قال لهما الشيخ عامر، فسكتوا، فرمى فرج الله في حجر الشيخ خيري منديلاً مصروراً، ولفَّ الشيخ عمران الشال الأخصر، وطار، فمشى فرج الله عندما صرخ الشيخ عامر وخبط على بطن الزير في المقام ثم أخذ يبكي بعد ان أغلق باب المقام في وجوه القادمين، وظل الشيخ خيري بجوار الزير يُكلم الهواء على انه فرج الله ويقول له :

ـ اركب تيوتا، ولا تفضح السر يا فرج الله .

فقالت لفرج الله أمه ـ وهو يحكي ـ والله العظيم يا ابني ـ في عزّ الظهر ـ كنا في سيرة الشيخ عمران، وكنا نحسبك في الشغل، وابنك كح في حجري . □



بورتريه

العجوز

■ في طريقك الى البيت . تتقاذفك مصابيح الشارع . يمد أحدها أذرع نوره . يأنس بك قليلاً ثم يسلمك للآخر. تعانق عيناك السماء . تتعثر في نافذة حجرة السطوح . وليمة لذيذة . لا بد أنها أعداها لك وتركاها ونزلا الى المقهى يراقبانك عن بعد . في المرة الأولى انتظراك أمام الباب . فيما وقفت مرتبكاً . جذبتك من يدك أحسست بالطراوة . وسرى في أوصالك برود . همت المدربة بتعريتك، أمام نفسك . وكنت شارداً . قالت في يأس : تأخرت كثيراً . وكانت عيونها في الأركان الأربعة تتحداك . رددت هامساً : كان يجب أن أفعل شيئاً . سبقها اليك عبير نفاذ . وتراجعت قليلاً . متفادياً بطش الشلال . طوقتك . ورأيت شفتيها في لون الدم . تنهدت . وسألتك عن الحال . وأنت تكاد تفتح الباب . ماذا كانا يفعلان قبل الآن؟ لا شيء . انتظراك . ولما تأخرت قالا إنني يجب ألا أعود كما أتيت . خرجت اليها، بكامل هيئتك . كتما ضحكة خبيثة . وتأسفا على خيبة أملها فيك . قالا : قمنا بذلك نيابة عنك . من الآن لا تطلب شيئاً . حتى هذه لا تعجبك . انها أفضل من صادفنا . أنسيت اننا بعد منتصف الليل وليس معنا سيارة . كم هي كريمة بموافقتها على الحضور.

وكانت تتسلل باحثة لنفسها عن طريق بين سيقان الليل . والحذاء تحت إبطها . وألقت في آذاننا بسؤال . موعدنا غداً . لم يرد أحد، كان الصوت رقيقاً . تمنيت أن تعود . ليتك لم ترها . فلمثل هذا الوجه خلق هذا الصوت . في هذه المرة وعداك بالتنازل بالانتظار في المقهى على أن تترك لهما الحجرة بعد ذلك . هي الآن هناك . تتلصص من ظلام الحجرة . وأنت منجذب اليها . تبتل قدماك بالظلام . تغوص فيه صاعداً . ويشدك صوت غليظ . يهبط السلم، ملتمساً طريقاً : بديعة . تركيني وحدي . ماذا أحَركِ . تمسك بيدك . تتحسس شعرك . ويدك العرقى . من؟ تقول انك ساكن السطوح . وتهبط متعلقة بك، الى الشارع . تميل الى يدك . تلثمها . كلما أمكن لها ذلك . الدموع عانقت عرق يدك . «تركتني وحدي . ضاقت بي . وأغلقت الباب . من فضلك اذهب بي الى هناك سأدلك على الطريق . قلت لي ما اسمك؟» . تجذبك الى اليمين . في اتجاه ميدان العباسية . الحارة الخامسة . الى اليسار. في مواجهة مقلب الزبالة . الباب خشبي . يتدلى منه حبل السقاطة . «قلت لي ابن من أنت؟ لا بد انك مجدي . اعذرني يا ولدي . يبدو انني أخرتك كثيراً . هل تسمع الآن قرآن الفجر؟» .

على ناصية الحارة الأولى يتألق المصباح . العجوز تشدك الى الوراء . ترفع يدك . تقبلها . دموعها تنبع فياضة . تروي جداول وجه كان رياناً . تذوب الملامح . لا ترى إلا عينين مفتوحتين . تنظران الى الأمام . والطرحة تطوق الوجه الرطب، فيستدير بدراً باهتاً . الحسناء هناك . تراقبك من أعلى . وهما بالمقهى . وعداك بأن تكون الأول . اثبت لهما كفاءتك وإياك أن تتخاذل . أسرع

سعد القرش
مواليد ١٩٦٦

قليلاً. الفتاة لا تحتمل هذا التأخير. وحدها بالغرفة. «كنت أسألك عن ماذا يا بني؟. آه. نسيت أيضاً». تقول لها ان الفجر لن يأتي الليلة. لا بد أن تنصرف الفتاة قبل منتصف الليل. «نعم. كنت أسألك». وتبكي في ضوء مصباح ناصية الحارة الثانية. تذوب هضبتا ثدييها. وينساب جلبابها متهدلاً. تتعثر فيه. تتعلق بيدك. وجهها لا يزال يحمل بقايا جمال. هل تكون فتاة الليلة، كفتاة الليلة الفائتة؟ وماذا قالا لها عنك؟ لولا هذه العجوز! «لا تتعجل يا ولدي. انني متعبة. جائع أنت؟! اقتربت الحارة أليس كذلك؟. لم تقل لي ما اسمك. ارفع صوتك». تستدير بنظرة خاطفة. تحصي الحارات والمصابيح، الى اليمين مقلب الزبالة، كلب يعربد بكيس. يداعبه بأنيابه ومخالبه، ويحتضنه. يتركه ويعود اليه. «أظنها هذه الحارة يا ولدي. توقف قليلاً». الكلب يكف عن لعبته. يتطلع نحوكما. يدعوكما الى السير. جانب آخر من الظلام يتطوح. تهتز كتلة الليل وتتأوه. أنفاس لزجة. أجزاء بهية من اللحم الحي ترفع جفن الليل وتغمضه. الصمت ستار. لا يمزقه إلا زفرات العجوز. الكلب يعبث بالقميص والسروال. يخطف بعض الثياب مبتعداً بالغنيمة. يتجسد الظلام والصمت ينبت له رأس. وساقان. وذراعان، يجدف بهما جارياً وراء الكلب. يتطوح الشيء أمامه. مرتطماً بفخذيه. كمصباح خافت. يتكور جزء آخر من صمت الظلام. تسدل شعرها. ينطفىء الضوء الواهن. العجوز تدفعك. «لا بد اننا وصلنا». تدوس حافظة نقود. تشكر القلب الذي اكتفى بالثياب. بخفة ترفعها. تشير الى القمر المتوارى خلف سواد الشعر. «ألم نصل بعد يا ولدي؟ ما اسمك؟». كدنا نقترب من ميدان العباسية. تنحني الأقدام. الباب الخشبي. يهبط منه ذيل السقاطة. «أستطيع الآن أن أصل وحدي. أشكرك يا.. لم تقل لي ما اسمك. هو هذا الباب. يا بديعة. يا أولاد الحرام. افتحوا». الفتاة لا تحتمل أكثر من ذلك. عد اليها. واكتف بحافظة النقود. ودع العجوز، كما طلبت. يفتح الباب. النور كله يغمر الحارة. أمي؟! تصرخ. تفتح صدرها. تستر عريها الكامل باحتضان العجوز. أنت!. جيبك يمتص النقود. يخرج القمر من برج محاقه. يربت على كتفيك. □



جدتي

١

■ تكورت على أعوامها المائة. ونامت. لكنها لم تسترح. قبل الفجر. شدتني بعصاها العوجاء. من قدمي، ونامت. كنت نائماً بجوارها. بلفحني أنفاسها الساخنة، وعيناي نصف مفتوحتين.

رفعت قُلة الماء، بيدين مرتعشتين، ثم تجشأت حزنها، وطلبت شاياً. سألتني فجأة:

ـ قرآن الفجر بدأ؟

ـ آ

تحاملت على بقايا الصحة. واتكأت على عصاها. وارتمى ظلها قصيراً وباهتاً، وهي تتجه الى الحمام.

صنعت لنفسي كوباً. وكانت قد انتهت من صلاة الفجر.

حمدت الله على الصحة والنعمة. وناولتني الكوب الفارغ. هزت رأسها، وجذبتني برفق الى صدرها الناشف، وقبلتني بين عيني.

ـ أعمامك قاموا من النوم.

ـ لا.

اهتزت يداها. وارتعشت الذاكرة...

تسربت، بخفة، من بين أعوامها المائة، فتكورت، ونامت. لكن لسانها لم يسترح...

دائماً تتذكر جدي. تقول انه يمد اليها يده، كل ليلة، وهي لا تستجيب. تسيح ملامح الوجه. وتتآكل الخطوط التي تفيض منها الدموع، كلما وجدت نفسها وحيدة، وهي دائماً وحيدة.

٢

تعلقت بخيوط الشمس الوليدة، وسرت وراء أعمامي. عمي الكبير نزع جلبابه. ووضعه على المقبرة المجاورة، فأنزله عمي الصغير، وحشره بين أذرع شجيرة الصبار. كلهم شمروا. وتدلت سراويلهم، التي بللها العرق، وماء المعجنة.

حارس المقابر خرج من بيته جاهزاً. تتدلى من سرواله الأبيض تكة من صوف الغنم. انزلق الى جوف كالمقبرة. ولملم جمجمتين. وبعض العظام، وقطعة من كفن بال. وقال: «كل من عليها فان». خبأ بقايا الراحلين، في جسد الرمل. وانغرزت ساقه، همس، كأنه يحدث نفسه:

ـ هو الذئب الأعور.
كان الأعمام مشغولين بتجهيز الشغل، وسألته:
ـ نعم يا عم؟
تجاهلني. وألقم الفم المفتوح سرسوباً من الرمل الناعم. ثم كبسه بقدميه جيداً.
ـ الآن، نطمئن على الحاجة.. لو ماتت!
وأخذ يدور حول نفسه، بلا خوف، يفتش عن عظام. وردد في نفسه:
ـ وماذا يأكل منها الذئب.. يا حسرة!

٣

زوجة عمي أحضرت الغداء. نظرت الى المقابر الجديدة، وقد نبتت سيقانها، وحملت ملامح الموتى، وروائحتهم. قالت، وهي تضع يدها على رأسي، عابثة بشعري:
ـ يا مصيبتي عليك يا أمي.
عمي صرخ في وجهها، ونظر اليها غاضباً، وقال انكتمي يا ولية، فانكتمت. وضع البناء المسطرين على مقبرة مجاورة، وأنزله عمي، ووضعه في حضن الصبارة. وانتظر حتى يختمر التراب.
سحبت البشكير، وكومته على رأسها، وأخرجت العيش، والبطاطس المحمرة، والبصل، والأرز المعمر، والمخلل. ودست في يد عمي نصف رغيف ملفوفاً. وسألها:
ـ ايه الأخبار؟
ردت في لهفة:
ـ ربنا يستر.
قضم لقمة، سدت أشداقه. عطس بشدة، فانتفض ورك الفرخة من يده، خارجاً من العيش. وغافلتنا زوجته. وبهدوء سحبته.

٤

في غبشة الصبح. كانت الشوارع تتثاءب.
خرج الأعمام وزوجاتهم. خلطوا التراب بالتبن، واختمرت المعجنة.
نفخت زوجة عمي الصغير خرطوماً من البخار الدافىء، وامتصت ثديها. ورمتني بنظرة غل. وكنت أغافلها، وهي تشب على أطراف قدميها، كي تطول الجدار، وأترك عيني، تتعلقان بضفيرتين تداعبان ردفيها، ثم تهبطان من الأمام، وتستقران على صدرها النافر.

كانت احداهن تحمل قصعة الطين، تترجرج منها عجيزتها الريانة، وقالت:
ـ عيّل يا سيدة. وعقله على قدّه.
مصمصت شفتيها:
ـ عيّل!... صحيح.

٥

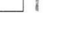
كنا قد بدأنا نمتص ظلالنا. وتعلقت عيني بمن تقف أمامي، في جلال، يستلقي ظلها على الأرض، طولاً وعرضاً، تتخطى نظراتها أعمامي، وزوجاتهم، وشواهد القبور. وتنساب من رأسها ضفيرتان، تتسللان من تحت الطرحة، وتنامان على صدرها الممتلىء، وتتلألأ منها القطرات، وبدت عيناها الصافيتان، في الكحل، بلون الطين.
هزت رأسها. وكانت العيون تصافح العيون، في صمت، وقالت:
ـ الله!... الله!
داعب الصوت المألوف آذاننا. وانتظرنا المزيد.
قالت، وهي تتطلع الى حيث تغرب الشمس:
ـ أقوم من النوم، ولا أجد فطوراً؟
انجذبت اليها، ورفعت ذراعي، أتعلق بيدها الهاربة مني. كانت يدي متسخة، فقالت:
ـ حتى أنت يا جحش؟ □



سعيد عبدالفتاح ابراهيم
مواليد ١٩٥٥

١

■ فرقة وحبل وجسد منهك ودموع.
قال «أبو الليل» في هدوء وسكينة:
ـ يا سيد. لا تبالِ بما قيل فيك إذا كنت مع الحق، فإسقاط الجاه في قلوب المخلوقين سر عظيم.
جذب الحبل من يد أبي الليل. لثم ظاهر كفّه اليمنى، فبللتها دموع غزيرة، ومضى في الخلاء يحتطب. جمع حزمة على رأسه. دخل السوق بعد أيام قضاها في الخلوة. ملأته هالات ايمانية واشعاعات نورانية. سار وسط نظرات الناس في السوق، يرغب في بيع ما احتطب ويعود. يعي كلمات الشيخ. منقوشة داخله. يستطيع أن يرددها إذا حزبه أمر. يرتاح كلما تذكر ما سمعه منه: «تأخذ مجامع قلوبهم بحلاوة ألفاظك، وطلاوة كلامك، وحسن منطقك، حتى ترى أنك أفضلهم».
ـ بكم تبيعها أيها المعتوه؟
فكّر: «آن الرحيل، فلا تنسَ كيف تلقاه، وأنت بقاذورات القلوب ملوث».
ـ بكم تشتريها يا أخي أكرمك الله ورعاك.
دموعه على خديه تتقاطر. بأوراد السوق يتمتم. تتعالى ضحكاتهم ونحيب بكائه. يرقبون حركاته. يتابعونه، وهو يقبض على الدراهم يبتاع قوت يومه، وبالمتبقى يتصدق. تملأهم اندهاشة فتنزلق الأسرار من الأفواه:
ـ من يصدق؟ والله العظيم هو.
ـ الرجل الملعون؟
ـ لا تسب أحداً. ما هو إلا رجل صالح.
ـ تقول صالح!
ـ نـعم.
ـ يعشق الخلاء والشعاب وبطون الأودية.






ـ والفتيات الجميلات.
ـ بل الخرقة والحبل علامته.
ـ صلحاء الظاهر.
ـ الباطن يعلمه علّام الغيوب.
ـ بل يدافع عن مجونه السابق.
ـ عُصِم من الغل والحسد، والحرص والشره المذموم.
ـ قل يغرق ليفر من سعداه التي أنكرته.
ـ كانت فتاة لعوباً.
ـ لم يقدر على بعدها.
ـ وخرقته شهادة ذلك.

صامتاً يستمع الى كلامهم. أعاصير تهب عليه. ترعش أطرافه. يتهاوج تماوج الموج الزاخر بالعواصف. حسا حسوات ماء. لم تصل الى جوفه. انتثرت على شفتيه. مضى نحو الخلاء متمتماً:

«ما أثقل الحمل، وطول المشوار، وقلة الزاد. لهفي عليكم».

٢

ـ يا شيخ زدني.
ـ الحكمة مطلب عسير.
ـ أطمع في الاستزادة والتحصين.
ـ أول ما تعود به لسانك ذكر المحبوب. به تحصل الطمأنينة.
ـ روحي عطشى، وذاتي متلطخة بالأوزار. تقدح فيها شرار الخلق. تنهشها. وأخشى. أخشى.
ـ يحسن بك أن تسمع.

صرخ واقفاً:

ـ يكاد ينفطر قلبي.
ـ يحسن بك أن تهدأ.
ـ يتهموننا بسرقة القلوب، وإظهار الصلاح بالزي.

اعتدل الشيخ في وقار. تألقت ملامحه وهو يقول:

ـ كيف تتكلم في مقام لم تصل اليه، وعلى حال لم تذقه بعد؟
ـ حتى الآن؟
ـ حتى الآن.
ـ وماذا أصنع؟ أنقذني.
ـ أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس. اغرس الأوراد تنصقل مرآة القلب. فإذا غُلِّقت عليك أبواب المعاني، فاقرع بابه.

شف الصوت المفعم بهدوء كوني. طاف وحلق في الوجدان. تمكن. رفرف في القلب جناحا الطائر. شمله في غبشة الغروب فيض. شغله هول المعاد عن الرقاد. فراح يعد العدة للسباق في حلبة النجاة. . صعد مدرجات العشق قلبه، خافض الطرف. منطلق الوجد كان.

٣

نظر من خصاص الكوخ، فرأى الظلام يلف المدينة. تحرك خارجاً. وقف على المدخل: «الآن أخشى عليك أكثر، تراودينني أكثر. أراك تتسللين الى حلمي، الى يقظتي، الى دمي. سكوني. بعد أن وجدت منأى لي. أخشاك وأخافك، فاتركيني اتركيني».

لمس براحة اليد اليمنى جبهته فانبثقت حرارة الوجه، واندفعت ريح قوية تصفر في البراح حوله.

سأل نفسه:

«تقاطعت الطرق وتوازت. كيف المسير؟ وكيف تحيط بنا حلقات ضيقة، وهذا البراح هنا. كثرت الأحابيل وازدادت الفخاخ

لمن لا سند له، وأنت السند. أنت».
علا الصوت شق الفضاء الصموت.. قدم اليه أبو الليل في تؤدة. ربت على كتفه:
- إعلم انك إن قدرت على رد الشوارد، أمنت من الزلل.
- ظمآن يا شيخ وقلبي يحترق.
- لهفي على الزمن القصير تضيعونه.
- قاطعه في حدة:
- يا شيخ ألا ترى أن الفقر يُرجَى له الغنى!
ابتسم الشيخ في هدوء:
- والغنى. ألا ترى يُخشى عليه من الفقر!
- يا شيخ اهتصرت الأحزان عودي، وعضتني نوائب الدهر. ولا أزال.
- كل من عليها فان.
- قوة تجذبني اليك، وألف قوة تشدني عنك.
- من حَذَّر كمن بَشَّر، ومن بصَّرَ فما قصَّر.
- أفهم. ولكن...
- من يدري؟
- بل ألوم نفسي، وأخشى الدفائن، وتقلُّب الدهر. تقودني المصاعب الى مصاعب.
لما آنس الشيخ حسن انصاته، مرر يده على رأسه وتأوه قائلاً:
- أمسيت بالي الكسوة والقوة، فماذا أنت فاعل؟
لاذ بصمت الدهر، يجبر جرحه. كسره. قلبه. حناياه.
قطع الشيخ صمته:
- بليت بروع بعد روع، فما تكشَّف لك شيء.
- بل انكشف كل شيء.
- كيف؟
اتجه خارج الكوخ، ناحية المدينة. وقف ينظر. خلع خرقته، وبعزم وقوة قذفها، ومضى عارياً وحده في الخلاء تتقاذفه الريح. □



الأمسيات والضحك والولادة

- هوّ مش خال شقيق . . ابن عم أمي . .

أشار لهما الشرطي بأن يسيرا على جانب الشارع، دار الاستفسار في عقل كل منهما، واجهتهما اليافطة القماشية مُعلّقة بعرض الشارع مملوءة بالثقوب المتعمّدة لإنفاذ الهواء خلالها - وقد كُتب عليها: احتفال هيئة الأزهر بالعاشر من رمضان. تجنبا الصيوان الفخيم المضاء كالظهر ذا المقاعد الجلدية، عبرا من أمام مسجد الحسين وانحرفا يساراً الى شارع الأزهر، صعدا الكوبري العلوي الصغير الى الناحية الأخرى من الشارع.

- أيام الجامعة كنت ساكن معاه . . راجل طيب وجدع صحيح.

دخلا الغورية، كانا يشبكان ذراعيهما أثناء السير، وبالرغم من ذلك فقد ازداد التصاقهما تلقائياً ليستطيعا السير في الزحام.

- شامم البخور؟

- شامم . . والله زمان يا قاهرة.

جاهدا لاجتياز باعة الأحذية والملابس الرخيصة والمأكولات والفوانيس، وصلا الى آخر شارع المعزّ، عبرا باب زويله، تأملا البوابة بنظرة سريعة. لمس أحدهما الرؤوس الحديدية البارزة فيها، اتجها يساراً.

- لسه كتير؟

- مش قوي . . احنا دلوقتي في الدرب الأحمر.

هدأ اللغط والزحام، قلّت الإضاءة، تغيّرت سحن الناس، بدا أغلب الرجال بلحى نابتة.

- درب التبّانة وناخد يمين.

- إنت ناسي البيت ولاّ إيه؟

- عارفه زيّ اسمي . . بس باحب أنطق الأسامي دي بصوت مسموع.

انحرفا يميناً ثم انعطفا يساراً.

- آهو يا سيدي البيت . . . وصلنا.

اجتازا المدخل الضيق، اضطرا لإشعال ولاّعات السجائر ليتبينا الأشياء في الظلام، ظهر لهما السلم الحجري المتآكل في وسط كل «سلّمة» - وأحجار الحائط الراشحة بالملح والمياه، تقدم أحدهما الآخر فدق الباب.

- مييين؟

هكذا أجاب صوت نسائي ممطوط من الداخل، أضاء نور السلم، فُتح الباب عن امرأة نحيفة ترتدي جلباباً أسود. تأمّلت الشابين لحظة ثم أضاء وجهها.

- مصطفى . . مش معقول . . الكلب اللي كان بيعضك موتناه.

اندفعت وأخذته في حضنها.

- يا حبيبي . . إخص عليك يا مصطفى . . كده برضه . . . متسألش عن خالك ومرات خالك . . أربع سنين.

اندفع من وراء المرأة فتاة شابة وطفل صغير يتطلع في دهشة، صاحت الفتاة: أبيه مصطفى . . مش معقول. أخذها في حضنه، تأملها.

حسني عبد العليم
مواليد ١٩٥٥



ـ ياه . . كبرتي يا هناء . . بقيتي عروسه!
وسّعت لهما المرأة .
ـ إتفضل . . إتفضل .
ـ معايا ضيف . . الأستاذ حسن زميلي .
ـ يا مرحب . . اتفضل انت والضيف .
ـ ودا مين الأمّور ده؟
ـ دا محمد ابن مديحة . . ما أنت بقالك زمن ما جتش .
في الطُرقة الضيقة خافتة الإضاءة ـ توقّف الركب، كان قادماً عليهم من الداخل : ضخم الجثة، أصلع مقدمة الرأس، يرتدي بنطلون البيجامة وفانلة صوف حمراء برقبة، فوقها جاكتة صوفية من ذلك النوع الذي يرتديه موظفو هيئةالنقل العام .
ـ مصطفى حبيبي . . اخص عليك يا وِحش .
ـ خـال .
غرقا في الأحضان والقبلات . دخل الجميع الى حجرة المسافرين .
ـ إخص عليك يا درش . . نسيت خالك .
خلع الشابان الأحذية وجلسا على الكنبة البلدي، اضطرا للرجوع الى الخلف بشدة حتى يتمكنا من سند ظهريهما الى الحائط، تربع الخال بجوار زوجته على الكنبة الأخرى .
ـ الشاي يا هنّوءة . . إزيّ أمك يا مصطفى .
ـ بخير يا خال وبتسلم عليكم . . وأبويا كمان بيسلم عليكم .
كانت الحجرة ضيقة وكابية الضوء، الهواء بداخلها مشبع برائحة النوم .
ـ والله وبان عليك الكِبَر يا خال .

تدخّلت المرأة : كِبر ومش راضي يصدق يا مصطفى . . الشهر اللي فات غلبنا مع الحُكما . . بيهمل في صحته .
ـ ليه . . خير عنده ايه؟
ـ القولون تاعبني يا مصطفى . . لكن ربك والحق أنا ما ليش في حكاية الـحُكما دي . الانسان طبيب نفسه .
نظر الشاب الثاني في ساعته، لمحه الشاب الأول فبادر :

ـ الله . . أمّال فين التلفزيون . . مش هنشوف عندكم الهجان وليالي الحلمية؟ من غيرهم رمضان ميبقاش رمضان يا خال .
نظر أفراد الأسرة الى بعضهم وابتسموا، قالت الشابة : أصل التلفزيون اتسرق . انفجر مصطفى في الضحك، لاحظ الشاب الآخر أن هناك سِنّه مركّبة فوق سِنّة في منتصف الصف العلوي من أسنان الشابة، أدار نظره في أرجاء الحجرة، توقف طويلاً عند البرواز المربع الكبير، بداخله عشر ـ لا ـ ثلاث عشرة صورة لرجال ونساء وأطفال .
ـ والله ليك حق تضحك يا مصطفى . . الأسبوع اللي فات يا خويا قمت م النوم لقيت الباب مفتوح . . من غشمي قعدت أزعّق للعيال .

تدخّلت المرأة : دنا قمت على صوته . . أتاريه كان فاكر ان احنا نسينا الباب . أكملت الشابة : يا دوب أنا نمت الساعة تلاتة ودا دخل . . فتح الباب بحديدة لسّه شايلينها للذكرى . . وشال التليفزيون والتسجيل وخرج . زعقت المرأة تصحح : وساعة أبوكي يا هناء . . والعشرة جنيه . . كان لسّه جايبها متصلّحة من عند الساعاتي وحاططها على الترابيزة وجنب منها عشرة جنيه فكة .
خبط مصطفى كفاً بكف :
ـ بقى مخ . . خالي مختار عمّ الحتة ينسرق!
ـ حصلت والله يا مصطفى .
تدخّل الشاب الآخر :
ـ عَمَلت بلاغ؟
ـ آه عَمَلت .
انتبه مصطفى : آه . . أصل الأستاذ حسن زميلي محامي .
ـ أهلاً وسهلاً يا أستاذ . . متآخذنيش يعني . . عملت بلاغ وآدي وش الضيف .
ـ مفهوم . . آهو نعمل اللي علينا . . جايز؟
ـ كنا في سيرة المحامين امبارح والله . . أصل الولية صاحبة البيت ـ ما انت عارفها يا مصطفى ـ قال إيه . . عاوزه تطلعنا من الشقة .





تدخّلت المرأة: ما هي اتلمت على واحد محامي قريبها.

أكمل الرجل: قال إيه.. بعت لي إنذار إني أخلي الشقة عشان غيرت الغرض.. بيقول أم هناء عاملة مشغل وده مخالف للعقد.. الإنذار وصل وصاحبتنا ـ وأشار الى المرأة ـ هرّت على نفسها.

ردّ الشاب:

ـ وعَمَلت محضر إثبات حاله؟

ـ عَمَلت.. رحت لواحد صاحبي أمين شرطة.. وكتب ان دي ماكنة خياطة خاصة للاستعمال المنزلي.. وخد سؤال الولية وأررها ان هي كمان عندها ماكنة خياطة خاصة.. وجه وعاين المكان.

ـ وقال ان المكان استعماله سكن؟؟؟

ـ طبعاً.. وقال لا يوجد عمّال ولا يخزنون.

تدخّل مصطفى: وبعدين يا خال؟

ـ الولية ساقت عليّ طوب الأرض لحد ما رضيت اصطلح معاها.. ما هي بقى خافت... أصل من كام سنة غدرنا على بعض بسبب فلوس الميّه.. وكنت بحط لها الإيجار في المحكمة.

وُضعت صينية الشاي واختلطت رائحة بخاره برائحة دخان السجائر ـ فشاع الدفء في النفوس.

ـ دا أحمد أخوك كان عندي هنا من شهرين يا مصطفى.

أخيراً ـ استطاع الشاب الآخر أن يعرف وجوه الصورة، ذلك هو مختار أثناء زواجه، ملامحه من الصورة ظاهرة رغم شعر رأسه الكث المعمول كاريه، وتلك التي يضع يده اليسرى حول كتفها هي زوجته، لقد تغير شكلها كثيراً في الواقع.

ـ عارف يا خال.. أحمد قال لي.. وأكّد عليَّ انك عاوز تشوفني.

ـ بصراحة يا مصطفى.. أحمد أخوك أحواله مش عجباني.. كمان ميصحّش يعصلج يا أخي في موضوع جوازة أختك خصوصاً يا مصطفى ما تآخذنيش يعني.. إنت كنت مسافر وأبوك حاطط إيده في ميه باردة.

ـ أحمد طول عمره مش نافع يا خال.

ـ هيييه.. العيال رجليها شالتها.. برضـك في جوازة أحلام بنت خالتك سعاد قُلت لهم كده بصراحة الجوازة دي مش نافعة.. قالوا مختار بيحط مناخيره في كل حاجة.. والشهر اللي فات بس ـ أنا بنفسي ضغطت على الواد جوزها لحد ما طلّقها.

تدخّلت المرأة: ياخي سيبك بقى يا مختار م الكلام ده.. ولادك ومراتك عاملين إيه يا مصطفى؟

ـ الحمد لله يا مرات خالي.. بيسلموا عليكم قوي.

قالت الشابة: مجبتهمش معاك ليه يا أبيه؟!

ـ والله يا هناء كَسَل.. والدنيا زحمة.. وانتو عارفين بقى اللي متعودين على هدوء الفيوم ـ مصر بالنسبة لهمَ حكاية.

ـ والنبي تسلم لنا عليهم قوي.

كانت الحجرة قد امتلأت بالدخان، قامت المرأة وفتحت الشباك الصغير، شعر الجميع بالهواء البارد يدخل، خرجت الشابة، عادت ومعها خمس علب كبيرة الحجم تشبه علب الزبادي، وضعت أمام كل واحد علبة وملعقة صغيرة، أشرق وجه الرجل.

ـ متقلّبش.. سعيد أحسن واحد في الدرب الأحمر يعمل رز بلبن.. اتفضل يا أستاذ حسن.

فتح مصطفى علبته ونظر للشاب الآخر.

ـ الأستاذ تلاقيه خرمان قهوة.

ـ بعد ما يا كل هعمل له أنا القهوة.. فكرتوني بأيام الجيش.. الضباط كانوا يندهولي من عز النوم علشان أعمل لهم بن.

ـ يعني حريف عمايل قهوة يا خال؟

ـ بتشربها إيه يا مصطفى؟

ـ مظبوطة.

ـ والأستاذ؟

أجاب الشاب: سادة.

ـ وأنا زيادة.. هنعمل التلاتة في كنكة واحدة.

استغرب مصطفى: إزّاي بقى؟

تطوّع الشاب: ميّة وبن.. ويصب السادة الأول.. وبعدين يحط سكر خفيف ويصب المظبوطة.. وبعدين يحط سكر أكتر ويصب الزيادة.

ضحك الرجل بثقة: لأ.. هصبّ السكر كُله قدامك من الأول.. وهتشوف.

سرسعت الشابة: إوعى تقول لهم على سر الصنعه يا مخ.

- ما هم مش غُرب يا بت. . قومي بقى هاتي الكنكة وبابور السبرتو.

بدأ في صبّ المياه والبن والسكر، ووضع الكنكة فوق النار، أنزلها قليلاً ثم صبّ الفنجان الأول.

- اشرب يا أستاذ وقول لي.

- شرب الشاب: فعلاً ساده. . غريبة قوي!

ضحك الرجل: أصل لا مؤاخذة. . إنت لما بتنزل الكنكة من ع النار وتسيبها شوية السكر بيركز تحت. . تقوم تصب السادة. . وبعدين تحركها شوية بسيطة وتصب المظبوطة. . وتحركها جامد وتصب الزيادة.

ضحك الجميع بشدة، أُشعلت السجائر، نظر الشابان الى بعضهما، قال مصطفى: نقوم احنا بقى يا خال.

- الله. . لازم تتسحروا معانا وتبات سوا الليلة.

- معلهش. . لسه والله هنرجع الفيوم.

تدخّلت المرأة: مش كفاية فوتنا لهم الهجان والحلمية؟

قال الرجل: أقعدوا بس. . اقعدوا. . عليّ النعمة أحسن مسلسلات هم الاثنين دول. . الناس بتتسمّر قدام التليفزيونات يا عالم.

- بالإذن احنا يا خال. . وابقوا سلموا لنا على مديحة وجوزها. . هو اسمه إيه؟

- صالح. . وشغّال في كار الفضة. . جنبينا في خان الخليلي.

أضافت المرأة: زمانهم جايين. أصلها سابت محمد ابنها وراحوا بالبت ياسمين للدكتور.

- تبقوا تسلموا لنا عليهم بقى.

- يا عم اقعد الله يرضى عليك. . . علشان حتى الأستاذ. . دي أول مرّة نشوفه.

- معلهش يا خال. . هنيجي تاني قريب والله. . وهبقى أجيب العيال معايا.

- وعـد؟

- وعـد.

- متتأخرش علينا يا مصطفىْ. . بتوحشني قوي والله. كانت الفتاة تتمَسّس، ولكن عيني مصطفى لاحقتها وهي تحاول سرقة حذائه لتخبئه، قبض على يديها في اللحظة المناسبة.

- يا حراميّـة!

- والنبي والنبي تقعد يا أبيه. . الجواز خدك. . والعيال خدوك. . وبعدين السفر والكويت ومعدناش بنشوفك.

- يا بت أنا كنت عايش معاكم وانتي عندك تلات سنين ياما عملتيها عليّ.

انكسفت الشابة، قال الرجل: الستات بيتمنّوا يفضلوا صغيرين يا هناء.

- يا سلام يا خويا. . صغيرين. . مش عيال معفصين.

يكتب قصة قصيرة

ضحك الجميع، فاح المكان برائحة الدفء، سَلّم الشاب الغريب وخرج، سلم الثاني ثم لحق به، لحق بهما الرجل لتوصيلهما الى أول الحـارة وقد انتعل في قدميه شبشب بلاستيك، وقفت المرأة والشابة تلوّحان بالأيدي من الشباك. امتدت يد مصطفى فوضعت في يد الرجل بعض الأوراق النقدية في غفلة من الشاب، فوجىء الرجل فضغط بشدة صامتة على يد مصطفى رافضاً، تحت الحاح يد مصطفى أخذ الرجل النقود ووضعها في جيبه. تبادلوا السلام وأكدوا على الوعد بتكرار الزيارة، كر الرجل عائداً الى منزله.

أخذا طريقهما الى ميدان الحسين في صمت، كانت القاهرة القديمة مشرقة. □





■ حين قابلني تحت مظلة الباص.. صرخ في وجهي وأقبل نحوي..

مددت يدي لأصافحه، أو أبعده، لكنه عانقني وسألني باهتمام:

ـ أين أنت يا رجل؟

حاولت أن أقول شيئاً، لكنه بادرني متسائلاً:

ـ ألا تذكرني؟

حاولت أن أجهد عقلي، لكن سنوات الاعتقال كانت قد غسلت ذاكرتي!

ـ آه.. هكذا الدنيا.. يوم لك، ويوم عليك.

قال الرجل ذلك حين لم أجبه، ثم تنفس بعمق وأردف:

ـ ولكن أين كنت طوال هذه السنين؟

ـ في الاعتقال.

تراجع خطوتين وسألني لماذا. فلم أجد ما يمكن قوله!

«أنا نفسي لا أعرف لماذا.. بل ولا أعرف ـ حتى هذه اللحظة ـ ان كنت قد نلت حريتي أم لا.. في حلم مبهر أم كابوس مزعج!.. كل ما أدريه انهم أغلقوا الباب خلفي وقالوا: اذهب.. فأنت بريء!! ثم قذفوا بحاجاتي وضحكوا».

قال الرجل وهو يتراجع خطوة جديدة:

ـ الجو حار أليس كذلك؟

قلت: بل.. الجو بارد.

«كانت طيور النورس البيضاء تتوائب فوق البحر.. وتغطي بعض صخوره البعيدة.. وحين تتفجر الأمواج في نتوءات الصخر تطير النوارس صائحة.. ثم تحط من جديد».

ـ لم تقل لي لماذا اعتقلوك؟

ـ لا بد انهم يعرفون.

تراجع خطوة أخرى فازدادت الدنيا برودة، وفقد البحر زرقته.

ـ الجو حار.. أليس كذلك؟

ـ بل الجو بارد.

أعاد النظر الى حقيبتي القديمة، وثيابي التي كانت طويلة قبل الاعتقال ثم سألني إن كنت قد تزوجت أم لا..

سمير عبد الفتاح
مواليد ١٩٥٤



ولما نفيت ذلك ضحك بطفولة لافتة، ثم ضربني على كتفي معاتباً وقال: لم أعرفك من بعيد. منذ متى وأنت تلبس هذه النظارة السميكة؟

ـ قبل أن أتخرج.

ـ وهل تخرجت؟

ـ أظن اني فعلت ذلك.

ـ حظك أفضل، فقد رسبت فعملت بالتجارة.

ـ التجارة؟

ـ نعم. تجارة الأكياس الورقية، ومخلفات السفن.

ـ السفن؟

ـ السفن.

ثم أخرج سجائره المستوردة، وقدمها وهي مغلقة فشكرته بايماءة فقال: «أحسنت.. فالجو حار.. أليس كذلك؟».

قلت: بل.. الجو بارد.

«كانت الطيور قد هجرت صخورها البعيدة.. واقتربت من الساحل وكان عليّ أن أطيل النظر الى الأفق البعيد.. وأحسدها على ما تملك: فضاءٌ رائقٌ بلا حدود.. بحارٌ زبرجدية اللون.. غابات لا حصر لخضرتها وامتدادها.. سحاب وجليد.. في لون القشرة.. ومع كل ذلك: نحن للطين!!».

ـ أما زلت تكتب الشعر؟

ولما لم أجبه، مد يده «بكارت» يحمل اسمه وعنوانه وتليفوناته وقال انه مستعد لشراء كل شيء: قطعة أرض في أي مكان.. أنقاض أي عمارة.. أي كمية من حبال البحر، وخردة السفن.. وان لديه من يوصل البضاعة للمنازل، ويدهن الأبواب والشبابيك ويشتري النحاس القديم.. والكتب القديمة، والطرابيش ثم أشار الى تليفون مطبعته واستعداده لتصوير الحفلات والمستندات و...

ـ والفاتنات العاريات؟

ـ العاريات؟.. يا لك من وغد.. لم تفقد براءتك بعد.. ذ.. ذكرني بالاسم لو سمحت.

«ها أنذا أرى النورس من جديد: يهيم في قفصه فأطير في قفصي! والقلب ميزان العقل. ها أنذا أرى البحر كله.. والأفق كله.. اني لا أصدق عقلي كله!».

ـ ولكن كيف لا تذكرني يا رجل.. أنا أذكرك.

ـ ......

ـ ألا تذكر يوم ضربنا الناظر.. وحبسنا في الفصل؟

ـ الناظر؟

ـ الناظر!.. يوم ان...

وبدقة شيطانية رأيته في ظلام العقل.. هناك... في ركن يشبه قاعة الحزين.. كان يسرق أقلامي وحاجاتي الصغيرة.. وبعد الدرس يراودني عن نفسه».

ـ لقد تأخرت كثيراً.

قلت: من؟

قال: زوجتي، وأعاد النظر الى ساعته الذهبية فبدت خواتمه الكثيرة تكاد تختفي في لحم أصابعه. ولما حاولت أن أساعده في ترتيب لفائفه الكثيرة التي يحملها على كرشه الواضح نفر متراجعاً، وقال انه يستطيع.

«كانت النوارس تتعارك فوق البحر، وتنقض على الأسماك الصغيرة فتمحقها بينما الشمس الخجول تنام في حضرة البحر.. وتخفي وجنتيها».

ـ يا لها من أيام.. لكنها مضت على أي حال. ولكن كيف لا تذكرني؟..

جاءت سيدة ممتلئة تركب سيارة فارهة، مكدسة بالمشتروات وتفوح منها روائح كثيرة. وسمعْت صديقي يناديها.. ثم يعاتبها على تأخرها. وقدمها لي: زوجتي! ثم قال كلاماً كثيراً فقالت كلاماً قليلاً وحين مدت يدها لتصافحني شممت رائحة إبطها. لكزني صديقي وسألني ما رأيك؟ أليست جميلة؟

قلت: من. فضحك وضربني بعشم لا أحبه فاضطررت لأن أبتسم.

كانت ترتدي ملابسَ متناقضة الألوان، ومؤذية للعين، وتخنق أصابعها بخواتم بيضاء وصفراء كثيرة، ورسغيها بالأساور.

ـ زميل دراستي . . لم أره منذ زمن بعيد .

سألتني : هل يقول الحقيقة .

فكرت أن أنفي ذلك ، قلت ان ليس للحقيقة وجه واحد والهم مبعثه همومٍ . وحينذاك وزنتني بعينيها ويبدو انها وجدتني أخف مما يجب فضحكت ، وضحك زوجها وقال : ان الشعراء يعيشون في قصور من ورق . ثم ربت على كتفي فهاج النورس وتخثر المحار تحت أقدام العابرين .

ـ الجو حار أليس كذلك .

ـ بلى . . الجو بارد .

«وكانت النوارس قد ركبت شيئاً ما في البحر ، وراحت تطلق صياحاً مزعجاً وتلطم الهواء بأجنحتها في هول كبير . . ورأيت الناس تصرخ بدورها وتجري هائمة الى هناك» .

ـ «غريق» . . «غريق» . صاح صديقي مردداً . . ولما لم أجبه تركني وتعقب زوجته الى هناك . فتذكرت أختي المهاجرة ، وصديقتي التي اختصرت الطريق الى السعادة فقتلها عنين!

«ـ أوه . . يا لها من حياة . . ما يكاد المرء يجني ثمارها . . حتى تروح!» قال صديقي ذلك حين عاد ، وحين وجدني صامتاً صاح وكأنه يعاتبني :

ـ السمك أكل وجه الغريق .

غمغمت : كلنا غرقى! فسمعني الرجل ، وما كنت أحب أن يسمعني . . لأنه تأملني بطريقة أزعجتني ، وسألني عما يبكيني؟!

كانت الدنيا قد تضببت بالفعل ، وغرقت الأشياء في ملح عينيَّ . . وحين أجهدت نفسي لأحصر سبباً وحيداً ، لم أجد ما يمكن حصره أو تحديده .

ـ انه يبكي .

هتفت زوجته بذلك فصلصل ذهب رسغيها ، وازدادت الدنيا برودة .

ـ «فكر في الموضوع الذي كلمتك عنه . . ستستريح» . فهززت رأسي دون أن أعرف أي موضوع . وحينذاك . . مد أصابعه الباردة وصافحني فسارعت بدفن يدي في جيبي الخالي ، وشغلت نفسي بما يمكن أن تأتي به الأيام .

«وكان البحر قد هاج وتفجر الزبد ، حين استكان النورس الخنوع للبرد والظلام . . فملأت كمي بالحصى وقذفت الطائر اللعين» .

ـ يا نورس . . يا عبد . . يا لعين . . لماذا تحن للطين؟ . . لماذا تحن للطين؟ وحين هاج النورس ملتاعاً ، وملأ السماء بالعويل والأسى . . دفنت وجهي بين أصابعي . . وشعرت بالسماء الحبلى . . تنذر بالمطر . □



شدو

■ كان الغروب يموت على جسديهما وتتكسر ظلال الأشياء من حولهما حزينة وفرحة في آن، رفعت وجهها في بطء وثبتت عينيها على اشتباك خيوط الضوء الأخيرة وهي تذوب في بحر العتمة.

ومن بعيد كانت السيدة تشدو بأبيات عذبة وشجية «تلك الأبيات لم ولن يستعيداها مرة أخرى»، وفي انحناءة القلب وانكسار المقاومة المضحكة للرغبات اشتبكت أكفهما، ثم مال الرأس قليلاً للأمام، والتقت الشفاه في نفس اللحظة التي كانت فيها أسراب العصافير المتعبة تجلس على الأغصان، تقص عن رحلة النهار وتتبادل الضحكات، وامتلكتهما رعشات واهنة مفعمة بعذابات الروح وجموح شهوة تأخذ كل منهما بذراع، ثم لبث كل شيء ساكناً. حتى الهواء لم يعد يحرك أوراق الشجر. حتى العصافير غفت، والكون صار انتظاراً. وفي بقايا الضوء الذي تمنحه مصابيح بعيدة، رأى خلف خصلات شعرها المنسدل بقايا ابتسامة منتشية.
نهضا من على المقعد الحجري ومشيا بخطوات تخشى انفلات الفرحة الساذجة..

•

عند افتراق الطريق خافا كثيراً من العتمة وعناكب الأوهام، انسحب كفاهما في بطء، بينما كانت آهة السيدة الملتاعة لما تزل تجوب أغوارهما، وتدور في سماء معتمة فارغة. □

جمال زكي مقار
مواليد ١٩٥٩

رحلة الطهور

■ كان نزول الشيخ خليل وحفيده الى البلدة علامة على اجراء عملية «طهور» لطفل من أطفالها أو أكثر.
على مدخل البلدة يكون والد الطفل الذي «سيطهره» الشيخ خليل في انتظارهم بالركوبة، فيمتطي الشيخ الركوبة وحده إذا كانت ضعيفة ويسير سيف بجواره.

عند رؤية أطفال البلدة للشيخ خليل يختفون بين أعواد الذرة. أما الطفل الذي سيطهر فيكون نائماً نوماً عميقاً لاستجابة والده لنصيحة الشيخ خليل، حيث يضع حبّة يعطيها الشيخ خليل لوالده في طعام العشاء لكي لا يستيقظ الطفل باكراً.
عندما يدخل الشيخ خليل الى الدار ووراءه حفيده يحمل الحقيبة، تنطلق الزغاريد مستقبلة العريس النائم.

يفترش الشيخ خليل وسيف «المقعد» وأمامهما الافطار الذي تملأ صحونه بالقشدة والحليب والبيض والجبنة البيضاء والعيش «المرحرح». فيتناولان الافطار وأمامهما يجلس والد الطفل، ويكون الشاي قد أعد، فيتناوله الشيخ خليل، ولأن سيف لا يشرب الشاي يناوله الرجل «حبّة من المانجو» ليعرف سيف ساعتها أن عليه الانسحاب الى خارج الغرفة.

أسامة خليل
مواليد ١٩٥٣

كان سيف يعلم جيداً ما يفعله جدّه فيخرج منطلقاً الى حوائط الدار الطينية في الحظيرة يداعب الطيور والمواشي، تحتضنه سيدات الدار ويربتن على كتفه بينما يكون الوالد قد اصطحب ابنه حيث يجلس الشيخ خليل.

في اللحظة التي يجتمع فيها صبية البلدة أمام باب الدار، يخرج سيف لينظر اليهم ويتطلعون اليه وهم في سعادة افلاتهم من مصير صديقهم الذي في الداخل.

عندها يجلس والد الطفل أمام الشيخ خليل على كرسي واضعاً ابنه فوق ساقيه، فاتحاً ساقي الطفل حتى أقصاهما وواضعاً يديه خلف ظهره، حاضناً ايّاه بشدة لكي لا يتحرك مديراً وجهه الى أي ناحية ولا ينظر الى الشيخ وهو يجهّز عدته فيعلو صراخ الطفل وتزداد الزغاريد.

يتحسس الشيخ خليل قطعة الجلد الزائدة في عضو الطفل، ثم يسحبها بيده الى الأمام ممدداً اياها ويأمر والد الطفل أن يثبته جيداً والموسى الحامية بيده، ثم يقوم بقطعها مرة واحدة. وبمجرد قطعها، يندفع الدم الى يد الشيخ خليل وأحياناً الى وجهه، ويتبرز الطفل ويغيب عن الوعي. لحظتها يكون الشيخ خليل قد قام بتضميد الجرح وربطه بشاش آمراً والد الطفل أن ينيمه في مكان مريح. بعدها يغتسل ويظل في مكانه.. وتكون نسوة الدار قد بدأن بتوزيع الشربات على الأطفال وجيران الحارة.

عندما يفيق الطفل من صدمته ويبدأ بالصراخ من الألم، يضحك الشيخ خليل ويعطيه بعض النصائح عن عدم مس عضوه والسير فاتحاً ساقيه. فيزداد صراخ الطفل دامع العينين لرؤية الشيخ خليل.

يمسح الشيخ خليل على شعره ويربت على ظهره. وتكون صلاة الظهر قد أذنت والمواقد قد هدأت نارها، وأنزل النسوة ما فوقها من الطيور المسلوقة.

يتناول سيف وجدّه الغداء. وتكون لفة من البيض والجبن والزبد وبعض الفطائر قد وضعت «في قفة صغيرة» يحمله سيف وراء جده على الركوبة. وعندما يصل الشيخ خليل وسيف الى الطريق الذي يستقلان منه سيارة عائدين الى البلدة يقدم والد الطفل ما فيه النصيب من النقود مستمعاً الى نصائح الشيخ عن كيفية معاملة ابنه إذا ارتفعت حرارته. فيودعهما الرجل ويعود الى داره، و«الغلق» بيد سيف وجده يربت على ظهره. □



يحيى مختار

■ ضربة الذَنَب المباغتة جاءت صفيراً صاعقاً صكّ أذنيها ولفها بالدوار والرعب. السم يصعد الى يافوخها في طنين كطنين الزنابير.

صراخها الفاجع المفزوع مع «هَبْدَةِ» الجسد الثقيل المتداعي على الأرض شال جسد «تِتْلى» من جلسته المسترخية في حوش الدار، ليقذف به في قلب «الديواني» ـ حجرة النوم ـ حيث زوجته «دِبيري كُوجلِي».

لمح العقربة تعدو هاربة.. سحقها بكعب قدمه الذي جف ومات جلده وتشقق منذ سنوات بعيدة. ارتمى عليها فزعاً محزوناً، «دبيري» غارقة في العرق البارد.. الرعب والرعشة يهزانها.. سمرة الوجه شاحبة.. لسانها جاف وشفتاها شاحبتان جافتان ـ أسرع وأخرج موسى الحجامة من جرابه.. شرع النصل في يده. ألقى بقبضة من حصوات الملح في فمه، بحث عن موضع الضربة.. أشارت في وهن الى منتصف الفخذ. «كيف وصلت الى هذا المكان؟» تساؤل لم يجهر به.

عرّى جسدها الممدد على الأرض قرّب الصندوق «السحارة».. نزع طرحتها ولفها حول فخذيها أعلى اللدغة، وأحكم الرباط بقوة محاصراً السم. ضرب بالموسى ضربتين متتاليتين متصالبتين وأقعى على ركبتيه وأخذ يمتص السم الممزوج بالدم ويبصقه.

ما من معين.. كانا وحيدين لا ابن ولا بنت.. ماتوا في سن الطفولة.. أفرغت «دِبيري» إحدى عشرة بطناً وما أن يبلغوا الحولين حتى يصيبهم اسهال عنيف وقيء فيذووا ويجفوا. لم ينقذهم من مصيرهم المحتوم منقوع «اللبان الدكر» الممزوج بالمحلب يسقى لهم على الريق وبين الرضعات، ولا «الحَرجل» المغلي ولا «حَلّف البر»، كأنها اللعنة السماوية التي عجزت أن ترفعها الأحجية التي علقت تحت إبطهم الأيمن، ولا «التِّرْب» ـ الشرشرة ـ توضع تحت المخدة التي ينامون عليها ـ كما لم يوقف زحف الموت اليهم النذور التي نذروها «لسيدي كبير» و«الشيخ عبدالله» و«حسن أبو جلابية» في «الجنينة والشباك» جنوب قريتهم «إبريم».

لم يغير من الأمر ما قامت «تتلى» بتنفيذه من نصيحة وموعظة «الشيخ خيري فجير» إمام جامع «إبريم».. أن يسلم أمره لصاحب الوديعة الذي يسترد وديعته أنّى يشاء.. وما عليه إلا أن يغتسل في النهر ويصلي ركعتين ويأتي زوجته التي تكون قد استحمت من

ماء غسـول الـطفل الميت، على أن يكون ذلك في نفس ليلة الفَقْد. هكذا يكون لب الصبر وعمق الامتثال للمشيئة الإلهية، وسيعوضه الله خيراً مما أخذ.

في المرة الأولى كاد أن يضرب «دبيري» التي لم يؤنبها طوال حياتها بكلمة قط، لما امتنعت عليه ونعتته بالقسوة وجفوة القلب، وسبَّت «الشيخ خيري» وأقذعت في السباب، وصاحت به في كلمات عارية، كيف تنام وترفع ساقيها وتستقبله وهي الأم الثكلى التي لم يبرد جسد وليدها بعد؟ ولكنه ظل عليها وناخ فوقها حتى نال وطره. كانت كالفتاة تفض بكارتها لأول مرة. . ذابا في حُمّى عاصفة من الشبق واللذة حتى ساخت روحاهما وامتزجا في متعة صعدت بهما الى ذروة لم يرتقيا اليها من قبل؛ «تِتلى» تحدوه رغبة عارمة لأن يقذف في رحمها ببذرة مولود آخر. . حركة جسده فوقها تضغط عليها وتسحقها في عنف تئن من وطأته هي و«العنجريب» ـ سرير من جريد ـ لا تهدأ حركته حتى يتشنج في عاصفة من سعار مصدراً من أعماقه حشرجات غريبة غير آدمية. . «دِبيري» تستقبله في عنف مواز لعنفه. . ترتفع بجسدها وتشب الى أعلى في دعوة للغوص الى الأعمق فيها. . فَرْجُها فم يمتص. . رحمها قبضة يد تمسك بالبذرة وتستبقيها في أعماقها. . كانت كجوف الأرض بلا قرار.

وضعت ما حملته وهناً على وهن احدى عشرة مرة. . ميلاداً وموتاً وثكلاً. توالي المشاوير للجبانة لم يدفع «دِبيري» لاعتياد وتيبس القلب والائتناس بالصبر. كان في أعماقها حرقة الحشا على الضنا ولوعة الأسى وفجيعة الفقد الذي أنبت في أعماقها جفاء حاداً كشوك السنط، وتسليماً أقرب للكفر منه للإيمان، ونثر على الجسد النحيل بقعاً بيضاء كالبهاق.

نصح الأهل «تتلى» بتغيير العتبة، فرغب في بناء دار جديدة ساعدوه حتى أقامها بعيداً عن كل دور النجع، لتقف وحيدة على حافة صخرية، تجويفها الكهفي كان الضلع الرابع لجدران الدار التي قال عنها بعد الانتقال اليها، إنه و«دبيري» يعاشران فيها مع الموت. . الضباع وبنات آوى؛ ذبح كبشاً وأراق دمه على العتبة ووزع لحمه، ورسم كف يده مفتوحاً في أعين الزائرين بأصابعه الخمسة مغموساً في دم الفدية على الجدران والأبواب، كما تسنى له أن يصطاد تمساحاً صغيراً فعلّقه أعلى مدخل الدار بعد أن حشا تجويفه بالقش وأحاط برسمين لعقربين كبيرين. وما كف الصغار عن الرحيل، ظلوا يولدون وفي تلافيف أجسادهم الغضّة ودمائهم بذور الفناء السريع؛ قالت بعض النسوة العجائز عن «دبيري» أنها «مُشَهَّرة». «امرأة حائض دخلت عليها في سبوع زواجها»، وقالت أخريات أن «محملها «مُمَلَّح» ينز السم في دم الأجنة». وما نصيحة الأهل «لتتلى» بتغيير العتبة إلا بقصد أن يتزوج بامرأة أخرى، ولكنه قصد أن يعي النصح بفهم خاص، انه يعشق «دبيري» ولا يستطيع عنها حولاً، وكيف يتركها وحيدة وقد شاركته الثكل وامتزج كياناهما وتوحد في أطفالهما المقبورين؟. . كم قرأ عذابها في عينيها. . كانت تموت مع كل طفل منهم، تخاف عليهم من لفحة الحر ونسمة الهواء. منذ أن تضع وليدها ويركبها هاجس الموت، بل إن الموت يقبع في أعماقها. . ما ذنبها حتى يهجرها لأخرى. . انه لا يريد أبناء من غيرها. . هي أحق أن يكون لها أبناء منه أكثر من غيرها. . إنه لن يستطيع الانفصال عنها حتى لو أراد أو أجبر على ذلك. . كانا كشجرتي لبلاب تعانق جذعاهما وفروعهما والتفتا حول بعضهما وصارتا كتلة واحدة يستحيل تمييز فرع منها عن صنوه.

بَعُد الزمن بنصيحة «الشيخ خيري» فلم تعد سنداً، ولا سبباً أو دواء، ولكنها ظلت من خلف الحجب وأستار النفس تدفع «بدبيري» الى أحضان «تتلى». . رغبة في الابقاء عليه. . ربما، ولكن الرغبة ظلت تتولد منفجرة في أعقاب موت كل طفل. ما أن تبدأ الشمس في المغيب حتى يزداد فوران دمها رغبة وشبقاً. . فتقوم من مجلس الحزن وتستحم وتغير ثيابها وتتعطر وتنتظره حتى يأتيها. . أرجوحة عجيبة تأخذها مُراوحة بها بين الموت والحزن واللذة والرغبة الشبقة في مزيج ومذاق فريد. . ظلت سنيناً هكذا حتى اجتازت عتبات العمر وتوقف الحيض الشهري وجف الرحم وانغلق. وكأنما كانت العقربة في انتظار سنوات الجفاف لتنقض وتضربها.

ما من معين. . كانا وحيدين في دارهما الوحيد البعيد عن كل الدور، والموت يقف على الأعتاب للمرة الثانية عشرة وإن اختلف المُزار. الجسد يبرد بين يديه ويتغير لونه. . ما لفمه لا يمتص من جسدها الموت الزاحف ويبصقه؟. الرعب يأتي و«دبيري» تسوح منه في نوبات من الغيبوبة تتوالى. . لا شيء يوقف زحف الرحيل أو يقي إنقضاض وحشة الوحدة وتجوّف الحياة وتمزقها بدداً. لا بد أن يقف الموت عند هذه التخوم ولا يتجاوزها. . هي تموت. . هو يموت، وهو لا يريد أن يموت. . لا بد أن تعيش «دبيري».

وانقض على موضع اللدغة يمتص السم الزاحف الى أوردة الجسد وشرايينه صعوداً إلى القلب، ما عاد يحفل بقذف حصوات الملح الى فمـه. . ما عاد يبصق شيئـاً. . أنفه ملتصق بأعلى الفخذين. . شم رائحة جسدها. . سروالها المشمور يكشف عن الفخـذين الناعمين. . أخذ يمتص ويمتص. . فمه ما عاد فوق مكان اللدغة. . الجسد كله ملدوغ. . المسام كلها مسمومة فليمتص السم من الجسد كله حتى يستبقيها وهي المصرة على الرحيل. . إنها لا تساعده!. . يشدها اليه. . إنها لا تقوم. . إنها لا تساعده برغبتها في أن تعيش. . إنها تتخلى عنه. حاول أن يجلسها. . التصق بها. . احتضنها. . نظرات واهنة ضائعة من عينين غاب سوادهما. . لا تراه. . تحس به. . أنفاسها واهنة. . هبط عليها مقبلاً. . التصق بها. . شم أريج شعرها. . التصق أكثر راغباً في أن يبث حرارة جسده في عروقها. اعتدل وأنزل سروالها وشد رباط سرواله. . يتحرك بسرعة وعجلة كأنما يطارد شبحاً يقاومه. . انحنى عليها. . عاقرته الحمى التي كانت تنتابه عندما كان يطأها عقب كل ثكل فار دمه بشبق الرغبة العارمة القوية التي



لا تصد.. اقتحمها.. انتفض الجسد.. سرت الفرحة والنشوة في عروقه فاشتد انتصابه.. واصل سحق الجسد المنسحب.. كانت مصرة على المغادرة، راغبة في الرحيل الى حيث صغارها.. وكان «تِتْلي» يريد بجماع روحه أن يسكب في أعماقها ماء الحياة.

أسبل عينيها.. حل عقدة طرحتها من حول فخذها، ورفع بها فكها السفلي مغلقاً فمها ماراً بالطرحة الى أعلى رأسها حيث عقدها عقدة محكمة. وتلا عليها الشهادة وغطّاها بملاءة عتيقة ممزقة. أوقد المسرجة ووضعها بالقرب من رأسها.. خرج وأغلق باب «الديواني».. سار للنهر واغتسل.. عاد وأخذ ركوبته وانحدر نحو النجع، يغالب حزنه الأسود القاتم شعور غريب غامض وملتبس، شعور من مسه مَلَك الموت بعصا الفناء ثم أطلقه. □

كائنات غامضة

■ أثناء جلوسه لا يمل الشيخ حاكم المدينة من تعداد فلوسه، دأب على هذا منذ جاءه المليون الأول، فأخذ على عاتقه مهمة حمايته، ولم يكن يعرف أن المليون يحتاج كل هذا الجهد في العد وفي المحافظة عليه، وفي حجم المساحة التي يحتاجها، فبات متخندقاً بجواره.

المساحة اللازمة لهذه الفلوس التي حصل عليها من عائد الانتاج كانت كبيرة جداً، لأن الشركة التي منحته اياها حاول مديرها المسؤول قدر طاقته أن يحولها له خارج البلاد، إلا أن الشيخ رفض رفضاً قاطعاً، ولما حاولوا حواره عن أهمية شراء أشياء أخرى تنفع أولاده وعشيرته، رفض رفضاً قاطعاً أيضاً، وبازدياد اصراره على قبض المبلغ عداً ونقداً لم يجد مدير الشركة بداً من تسليمه اياه، ولم يكن لديه مال سائل فاتفق مع البنك الانكليزي الموجود هناك أن يعطي للشيخ نقوده، وهي عبارة عن أوراق نقدية فئة الدولار الواحد، حتى يعجزوه، ويصعبوا مهمته، لكنه لم يتقاعس، ولم يرفض الأوراق النقدية تلك، فبعد أن استلمها هو بنفسه باكو أثر الآخر لخذ يعد كل باكو على حدة.

في القصر وبناء على أوامره هيأوا له الجو تماماً، يرى نفسه جالساً بجلبابه الأبيض متحرراً من العقال والغترة، مشمراً عن ساعديه، والسجادة الشيرازي الزرقاء محاطة بالتكاءات الاسفنجية المغلفة بوبر الحرير الأرجواني، النقود متراصة قالباً أثر الآخر كمكعبات كبيرة، وهو بين تكاءاته ممدداً، ومضطجعاً راضي النفس منشرحاً.

بعد أن استلم النقود، ووضعت كما يراها الآن، نبه الحرس المتواجد خلف القصر المترامي الأطراف أن لا يدخل اليه أحد، مؤكداً ذلك، وحتى تأخذ أوامره صفة الجدية. كان يرتفع عن الأرض ليؤكد طوله، وبناء على طلبه جاءته الجَارية بالشاي والنرجيلة وأخذت تدلك أصابعه، وهو مضطجع ناظراً بارتياح وقلق الى هذا الخير الذي نزل عليه فجأة، أخذ نفساً من النرجيلة حامداً الله، وتذوق الشاي قائلاً انه لم يجد ألذ من هذا الشاي مدى عمره الذي تجاوز السبعين سنة هجرية، وشرع في احتسائه بصوت عال حسوة أثر أخرى مكرراً حمده.

غرفته مخزن المليون دولار تلك تتوسط القصر تماماً، ولا يعرف أحد عنها شيئاً البتة، إذ انها ملحقة بجناح نومه، وهي بلا نوافذ، تحيطها غرف القصر من جميع الجهات، وبدت الغرفة شبه مظلمة، لأنه لم يكن يؤمن أو يثق بكل ما يعرّض تراثه البدوي للانقراض، فلم يتحمس لدخول الكهرباء، ولم يتحمس لكل الآراء التي قيلت من حوله، عن مدى أهميتها، وما طمأنه أكثر أن الجارية التي دخلت عليه غرفة مخزنه، لم تر ولم تعرف قدر أو قيمة تلك المكعبات النقدية المتراصة، وحسبتها في البداية صناديق من الأحذية، وهو بذكائه الشديد لم يثر خيالها، ولا حب الاستطلاع لديها، ولم يتكلم معها.

يقول لها دلكي أصابعي فتتساقط قطع من الجلد المهترئ ذي الرائحة النتنة، تبعد أنفها عن اندفاعات روائح العطن المنبعثة. يحسبها تستمتع بتدليك أصابعه، فينشرح صدره أكثر، وتروح أفكاره تهيم في فضاء غرفة المليون، التي لم يتمكن على مدى عدة أيام من عد بضعة آلاف منها.

يقوم واقفاً، ثم يجلس، يتناول افطاره وغداءه وعشاءه، ويعمل بهمة حتى يستطيع أن يتم عد النقود الأولى التي دخلت قصره بهذه الكمية، وبهذا الحجم، فمن واجباته بصفته شيخ القبيلة والأمين على ممتلكاتها أن يكون دقيقاً حتى لا يظلم أحداً. ومن تفرغه الكامل، وتركه لمصالح العشيرة فقد ثبت أن القوم فهموا أنه يقوم على عمله بدقة متناهية، لقد بدا كذلك بالفعل، لأنه لم يأخذ عينة عشوائياً ويقوم بعدها، أو حتى عدة عينات، إذ انه قرر أن يقوم بالعد الى أن ينتهي المليون.

قابلته عدة مشاكل في البداية، وتغلب عليها كل على حدة، فهو لا يعرف مواصلة العد بعد الرقم ألف، نجح في عد الألف الأولى وحدها ثم جنّبها، ثم الألف الثانية ووضعها بجوار الأولى، التي احتوت على عشرة بواكي والثانية كذلك، وهكذا، ولما تمكن

محمد عبد السلام العمري

من عد العدة آلاف المتراصة بجوار بعضها لم يعرف نطق الرقم الصحيح ، ولذا وجب عليه أن يستعين بأحد الأجانب، وهو الذي لا يطيق أن يرى أحداً منهم .

أثناء تعداد نقوده التي دامت عدة أيام، انتابه القلق على فترات متقطعة، وعلى مراحل متنوعة، إذ انه ارتبط ارتباطاً روحياً، ووجدانياً بالمكان الذي يخزنها فيه الى درجة أن حريمه الأربعة كن يأتين اليه واحدة بعد الأخرى، فلكل منهن ليلتها الخاصة، وكان عندما يمارس غريزته، يحرص على أن يكون منتبهاً خوفاً من دخول احدى زوجاته أثناء انشغاله عشقاً وولهاً ذائباً، في تلك اللحظة التي ينسى فيها الانسان نفسه، وأدى ذلك الحرص الى أن أحسّت الواحدة تلو الأخرى بهبوط معدل الكفاءة الذي عرفته .

وفي النهار نزع عن مخيلته وعن تفكيره الاهتمام بعشيرته وأوكل الى أحد أخوته الاهتمام بها، ولم يكن هنا ساذجاً، فراح يرسل أعوانه ومريديه وأحبابه ليأتوا له بالأخبار الجديدة أولاً بأول، عن طريقة استيعاب أخيه لمشاكل الناس وحلها، فراح ينصحه ويوجهه، والحقيقة أن هذا لم يكن يؤرقه، وانما الذي أرقه حقيقة هو خوفه من أن يؤلب الناس عليه .

الأجانب الذين أتوا واحداً أثر الآخر رأوا أنه دائم التشكك منهم ، فأي واحد عليه أن يذهب الى غرفة خلع الملابس المجاورة، وأن يرتدي جلباباً بدوياً على اللحم ، أعدّه هو بعد تفكير وتمحيص، لا يحتوي على أي نوع من أنواع الجيوب، وليس به فتحات داخلية أو خارجية . تنتهي أكمامه برباط ضاغط من الأستك العريض والمتين، وذيل السروال كساقي بنطلون في نهايته استك عريض يشبه نهاية الكمين المحكمين. له ياقة تفتح فقط تحت ضغط معين، وبشفرة خاصة، فاطمأن حينئذ الى أن من سيقومون بالعد وهم على هذه الحالة لن يسطوا على شيء. اتفق معهم أن يكملوا العد ويضيفوه لما بدأه هو، وأن تُكوّن كل عدة آلاف مكعباً، واطمأن حينئذ على أن مندوب الشركة قد أعطاه المبلغ كاملاً .

ثم راح يزاول هوايته الجديدة في عد النقود مطمئناً. ولم يبق، لازدياد اطمئنانه، إلا أن يغلق الباب جيداً، لكن الباب الذي حاول أن يختبر خشبه، وجده من وجهة نظره غير كاف لجلب الأمن والسكينة الى قلبه، إذ ذاك استعان بحداد ذي سمعة وخبرة نصحه به أخوه الذي عركته الخبرة والحياة، فركب الباب الذي يتحمل ضغط قنبلة ذرية مصبوباً من الحديد الصلب، عالي المقاومة بسمك لا يقل عن عشرة سنتيمترات، وصنع له عدة مفاتيح ذات أحجام كبيرة مختلفة الأمكنة وسرية التركيب .

فلما اطمأن من جميع النواحي على مليونه الأول خرج ليتفقد أحوال القبيلة، فقابلوه بالترحاب والاحترام، وازدادوا تقديراً له، لأنه من حرصه على أموالهم تحمل فراقهم ونسي هواياته ومزاجه، وباطمئنانه راح يزاول ويمارس هواياته المتعددة، فبدأ برقصة السيف البرقية التي اشتاق اليها كثيراً، والتي لا يزاولها إلا في البر بعيداً في أعماق الصحارى، وأخذ عدة أيام يبارز فيها كل من يعن له أن يبارزه، وبعد أن مل المبارزة رأى أن الوقت قد حان للقنص والشواء وشرب لبن النوق، واستمر على ذلك فترة ليست قصيرة، ختمها بمسابقة الهجن التي راهن على احداها بمبلغ ليس قليلاً مطمئناً الى أن لديه الأرصدة الكافية .

أحس أنه قد ترك قصره وحريمه زمناً بعيداً، فشد الرحال ومرافقوه، ونزلوا الى البلدة التي يتوجها قصره وحدائق أعنابه ونخيله،

وعندما دخل استقبلوه استقبال الفاتح المنتصر مما تسبب في ازدياد طوله عدة سنتيمترات، لأن جلبابه قد ارتفع عن سمانة الساق بما يساوي ازدياد الطول. توجه مباشرة الى غرفة خزن نقوده التي افتقدها، والتي اعتبرت بعد تركيب هذا الباب بمثابة خزينة محصنة ومدرعة، لم يأبه بالحريم المنتظر، والأولاد الكثيرين المتواجدين والذين لا يعرف عددهم أو أسماءهم، مفتوحي الأفواه، قذرين ووسخين.

قبل أن يفتح خزنته نظر خلفه فوجد بعض الحرس الخاص، فأشار اليهم بأصبعه حتى يبتعدوا خارج القصر، وهم بفتح الباب، وجاءته جاريته بماء دافىء وبخور ومسك، وقهوة عربية، فلما لمحها انفرجت أساريره التي بانت عن أسنان سوداء مشرخة ومدببة، ولما تمكن من فتح كل الأقفال الجديدة توكل على الله، وضغط الباب الذي انزلق بنعومة، أثر ذلك هبت نسمة هواء رطبة وعطنة محملة برائحة الدولارات، عندما انفتح الباب على مصراعيه توقف برهة لأنه خيل اليه أن هناك قرضاً لأسنان صغيرة، وأن هناك حركة داخل الغرفة، ليست عالية، ولكنها مثيرة، ومنبهة. أشياء صغيرة داكنة غير واضحة بذيول طويلة تمرق، وتبرق في جريانها غير آبهة به، ترسل من أثر النشوة دغدغات منمنمة لأصوات رفيعة ومنخفضة وسريعة كجريانها.

كانت حفلة فرح الفئران برائحة النقود التي لم تتذوق مثلها على مدى حياتها وعمرها الصحراوي، قد أنستها أن هناك خطراً داهماً ينتظرها، وهو من فرط الهول والذهول جعّر عالياً، واوو.. واوو. مصباحه الغازي ذو الانارة الضعيفة لم يسعفه على تحديد حجم تلك الكارثة التي تخيل انها قد قضت على ثروته وثروة عشيرته.

التفت الى جاريته آمراً بمصباح أكبر وأقوى، فلما جاءته بالاضاءة، رأت الفئران أن أحداً ينظر اليها، فوقفت جماعياً في شبه مظاهـرة على ذيولها، واثقة ومتحدية، وفور أن تقدم اليها، تقدمت في صف منتظم على قوائمها الخلفية، تلعب شواربها، وتهز رؤوسهـا. صرخ صرخة مدوية فانفك جمعها، وتقدمت جاريته صوب مكعبات النقود الجديدة ذات الرائحة النفاذة والجذابة، يسبقها مصباحها الغازي مما أجبره على الجريان خلفها لإمساك يدها بالمصباح وابعاده عن النقود.

لحظة جريانه اليها اندفعت الفئران واحدة إثر أخرى متسللة الى ثقب مموّه تمّ حفره من غرفة مجاورَة، حاول بقدر طاقته وجهده ونور عينيه واضاءة مصباحيه، أن يرى أين تسللت لكن دون جدوى، رجع الى نقوده يتفقدها، فوجد أن الفئران قد قررت أن تقرضها على فترات واضعة خطة طويلة الأجل بقرضها بانتظام وبالتساوي بادئة بالحواف، ورأى أن هذا قد تكرر في كل المكعبات العلوية تقريباً، وأن خطتها كانت واضحة لا لبس فيها، ولا خبث، ففهم على الفور الرسالة.

طمأنته الجارية أن لا خوف عليها، وأنه يستطيع أن يرش النقود بالسم أو بالمبيدات، لكنه من تعوده وحرصه أن يعد النقود كل فترة، رأى أيضاً أنه سيصاب بالتسمم إذا ما قام بعد النقود ثانية، فقرر أن هذا الحل غير وارد في ذهنه.

وهم جلوس على تكـاءاتهم يرتشفـون شايهم نظروا الى بعضهم البعض متسائلين عن سبب تغيبه هو القادم من سفرة البر الطويلة، فقام الأخ الذي تولى مهام القبيلة أثناء غيبته باحثاً عنه حتى وجده في الغرفة يولول حظ نقوده التي اغتالتها الفئران، لحظة ذلك، قال له ما الذي يستطيع أن يفعله الانسان إزاء هذه الكارثة، اقترح الأصغر الذي جاب المناطق وسمع الراديو كثيراً أن النقود لا مكان لها في القصر، وأن مكانها الحقيقي هو البنك.

امتعض الشيخ، وأظهر تأففه بطرق عدة، وبغلظة شديدة الوضوح، لأنه لم يكن يألف مثل هذه العادات، هو الذي وعلى مدى عمره الطويل كانت معاملاته مع نقوده دون وسيط، دائماً هكذا سهلة، ومتواجدة، وسائلة، يجدها حينما يريد ويصرفها وقتما يشاء، فلماذا إذن كل هذه الأسماء الجديدة لمخازن الفلوس والتي هي في النهاية لن تعطيك إلا نقودك.

لذا لم يتحمس لاقتراحات أخيه، وأخذ على عاتقه وأثناء عدم وجوده في القصر ودون الاستعانة بأي أحد إلا جاريته اعادة الدراسة الميدانية والمتأنية لمخزن النقود هذا، ومعرفة الخلل الذي من خلاله تسللت الفئران الى مخزنه.

أشعل أكثر من مصباح غاز، وركز على مدى فترات طويلة في الأركان وفي التقاء الحوائط بالأرضيات، ونقل النقود من أماكنها أكثر من مرة محاولاً التركيز واستيعاب خططه القديمة، واسترجاع خبرته في محاربة الفئران، وهيىء له كثيراً انه قد بدأ يعثر على بداية خيط. وعندما يبدأ الحفر يرتد محسوراً لأنه يحفر في أماكن جديدة، تتيح للفئران أكثر من فرصة للهرب.



أسعفته مخيلته الصحراوية باقتراح وافقته جاريته في البداية عليه، لقد أبدى رغبة في اضاءة الغرفة بعدة كلوبات باهرة الإضاءة، يشرفان عليها سوياً، بتغيير رتينتها كلما احترقت أو تزويدها بالجاز كلما نقص، ونظر بطرف خفي نظرة برقبة اليها راصداً أثر اقتراحه عليها، هي التي رأت أن هذا سيتيح لها فرصة دخول المخزن أكثر من مرة، ويعني كذلك أنه لن يتحرك مطلقاً من مخزنه، لذا تشاغلت عنه وأهملت اقتراحه، ففهم ما تفكر فيه الجارية، ولا تظهره حقيقة، وأن لديها كل الحق في الانشغال عنه، أثر ذلك قرر ونفذ على الفور ما يجلب لنفسه وفلوسه الأمان والسكينة، فقام بعمل قميص مجاور للحائط وفوق الأرض من الخرسانة المسلحة امتد الى الأركان وزوايا الغرفة، وعند التقاء الحوائط بالأرضيات.

بعد أن اطمأن الى أن نقوده بهذا الوضع أضحت آمنة انتقد روايتها في اليوم التالي فلم يتردد واندفع داخلاً، فرأى ازدياد عدد الفئران، وازداد معدل تآكل النقود الذي بدا واضحاً جداً هذه المرة، لأنه على ما يبدو وعلى قدر فهمه ومعرفته بالفئران رأى أنها

أشاعت بينها عن سر المخزون الجديد الذي يتميز بطعم آخر غير الذي تعودت عليه، فعلى الفور ولول باكياً ولطم ركبتيه، وندب حظه، وأخذ جاريته بين أحضانه تواسيه، وسألها وهو يربت على ذقنه ما العمل اذن، ما العمل؟ ان كل أفكارنا وتحذيراتنا ودفاعاتنا باءت بالفشل، ومرت عليه لحظة تنازل خلالها عن المليون من أجل أن يعرف من أين تأتي الفئران، لكنه أفاق على حكمة مؤداها أنه إذا بقيت النقود هكذا فإن معدل التآكل سيزداد، وستنقرض النقود التي يحرص دائماً على المحافظة عليها من أجل عشيرته، ففكر في توزيعها على عدة غرف دون أن يعلم حريمه، لكنه شعر أنها طريقة غير مأمونة وغير مضمونة.

طرح الأمر على مجلس العشيرة الذي تصادف انعقاده تلك الليلة، فرد أخوه دون تردد أن لا شيء يحمي نقوده سوى البنك، لكن أخاً أصغر اقترح أن يشتري خزنة ويضع فيها نقوده، الذي اقترح ايداعها في البنك رأى انه لا توجد خزائن هنا، وأن مجيئها من بلادها سيستغرق بعض الوقت تكون الفئران في غضونه أجهزت على النقود.

الشيخ حاكم القبيلة وانقاذاً لماء وجهه أوعز الى أخيه أن لا بد لصاحب البنك أن يأتيه هنا، في هذا القصر مشيراً باصبعه الى مكان الاجتماع. فور أن علم مدير البنك الذي أعطاه النقود، والذي انتظر كل تلك المدة على نار متقدة والتي خلالها ألح الحاحاً شديداً ووسط أناساً كثيرين لمصلحة الشيخ في المقام الأول، كما قال، لم يتوان ولم يتردد لحظة في الذهاب اليه. وأيقن منذ بداية علمه، أن عليه أن يتعامل معه على أن البنك بحاجة الى نقوده، وليس الشيخ هو الذي بحاجة الى حمايتها.

جاء مدير البنك واستسمح الشيخ في دخول أربعة موظفين ليقوموا بعدّ النقود فوافق الشيخ على مضض. أنهوا كل الاجراءات اللازمة، وبدأوا بوضع النقود في الحقائب الكبيرة التي جاءوا بها معهم. كان الشيخ يرى تراص النقود فينقبض قلبه، ويحس أن عزيزاً عليه يرحل، وأنهم ينهون الاجراءات الأخيرة في وداعه، ومع كل مكعب يضعونه في حقيبة ينقبض قلبه، ويدق دقات عالية كادوا يسمعون وقعها. أنهوا كل الاجراءات اللازمة، وكتبوا الايصال الدال على استلامهم، وبدأوا يخرجون الحقائب، إلا أنه أدركهم ولم يتركهم يرحلون، وأصر على مصاحبتهم الى البنك حتى يطمئن الى أن كل الاجراءات التي اتخذوها سليمة. نبهه أخوه الى أن مدير البنك نفسه هو الذي قام بالاجراءات. لم يأبه لكلام أخيه، لأن إصراره على مصاحبة النقود كانت كما تخيل، لهدف آخر، إذ ما أدراه أن النقود ستذهب الى البنك؟ ومن يضمن أن المدير لن يهرب بها خارج البلاد؟ وتأكد الأخ أن لا مفر من تنفيذ رغبة الشيخ، فركب بجواره في سيارة المدير التي انطلقت خلف السيارة المحمّلة بالنقود.

كانت السيارة عندما تغيب عن عينيه يقلق، ويأمر السائق بسرعة تداركها، فيكتم مدير البنك ضحكه الذي يمور داخله، ويداري وجهه الأحمر مبتسماً، والشيخ يتابع جريان السيارة بكلّيته، بكرشه الكبير وذقنه التي ترتعش، وحزامه الذي يتوسطه، وخناجره المتعددة الأشكال والألوان وعقاله ذي الثلاث دوائر على مستويات مختلفة من غترته البيضاء، وبقي قلقاً الى أن وصلوا الى البنك، ودخلت النقود الى الخزينة رأساً وظلّ الشيخ يتابع العملية حتى تم اغلاق الخزائن التي تواكب اغلاقها بالضبط مع انتهاء فترة العمل الصباحية، فلما علم الشيخ أنهم سيغلقون البنك على نقوده أصر بغير ذرة تردد واحدة، على استرجاعها ثانية. □



